محاضرات في

تاريخ أوروبا الحديث

نابليون بونابرت - فرنسا

الفرقة الثانية – عام- تاريخ

أستاذ المقرر

أ.م. د. محمد سيد إسماعيل

العام الجامعي ٢٠٢٤م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وعلى كل من سبقه من سيدنا آدم عليه السلام إلى سيدنا عيسى عليه وعليهم أفضل السلاة وأزكى سلام . ثم أما بعد،،،.

هذا الكتاب دراسة لتاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة حتى قبيل الحرب العالمية الأولى؛ حيث شهدت أوربا كثيراً من الأحداث التى غيرت من أوضاعها خلال فترة التاريخ الحديث، منذ عصر النهضة الذي يعتبر نتيجة حاسمة لكثير من التغييرات التي نقلت أوربا إلى العصر الحديث، وإذا كانت النهضة نتاج لمؤثرات هامة غيرت من شكل أوربا، أي ظهور التطور والتقدم في كثير من المجالات التي تفصل بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وهذا يعنى أن التاريخ الحديث قد بدأ قبل عصر النهضة.

وإذا كانت العصور التاريخية تبدأ بتغيير علاقات الإنتاج فإن تاريخ الطبقة البرجوازية هو التاريخ الحديث، ويلاحظ في هذه الدراسة أن العامل الديني رغم إرتباطه بالعوامل الأخرى (سياسية واقتصادية واجتماعية... إلخ) إلا أنه سيطر على أحداث أوربا في العصر الحديث.

على كل حال فإن كتابنا هذا قد بدأناه بـ"**عصر النهضة الأوروبية**" ثم الفصل الثاني النهضة في إيطالا **كفصل أول**؛ تلك النهضة التي نشأت على يد الطبقة البرجوازية في المدن التجارية في إيطاليا وما أحدثته من تغيير فى هذه الدولة، ثم انتقل هذا التغيير إلى باقي الدول الأوربية من خلال المهتمين بالعلوم والفنون والآداب رغم وقوف الكنيسة فى وجوههم. ثم يأتي **الفصل الثالث** هو بعنوان " **الكشوف الجغرافية** "؛ وتحدثنا فى هذا الفصل عن العوامل التى ساعدت على وجوده، ونشاط البرتغال الجاد في هذا المجال ثم إسبانيا، وقد أثار ذلك فضول كل من انجلترا وفرنسا لنيل نصيبيهما من تلك الغنائم.

يأتى بعد ذلك **الفصل الرابع:** والمُعنون بـ "**الاصلاح الديني** "؛ وقد تناولنا فيه حركة الإصلاح الدينى وظهور المصلحين الدينيين أمثال "مارتن لوثر وزونجل وكلفن" والمشاكل التي واجهتهم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. ثم الفصل الخامس الاصلاح الديني المضاد

وفي **الفصل الرابع:** والمعنون بـ"**الثورة الفرنسية**": تناولنا الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة، واشتعالها وسقوط الباستيل، ثم جاء الفصل الأخير وهو بعنوان (فرنسا وظهور نابليون) والذي أشار إلى أزمة مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية، ثم الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني وعصر الإمبراطور، وغزو نابليون لأوربا حتى استقالته وسقوط الإمبراطورية الفرنسية. ثم تطرقناللحياة النابية في بريطانيا حيث ابرلمان والأحزاب والدستور البريطاني. ثم جاء الفصل الأخير والحديث عن مقدمات الحرب العالمية الأولى كنهاية لتاريخ أوروبا الحديث وبداية لنظيره المعاصر.

الفصل الأول

عصر النهضة الأوربية

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ أوربا إلى ثلاثة عصور (القديم والمتوسط والحديث)، وأساس هذا التقسيم هو اطلاق اسم العصر على عدة قرون من الزمن، كانت فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة ومتقاربة "سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفنياً".

أما عن مصطلح النهضة في معناه الضيق هو "حركة بعث التراث القديم أو إحياء ذلك التراث" أي أنه تعني البعث الجديد أو حرفياً الولادة الجديدة، أما في معناه الشامل فهى تعني تحرر العقل الإنساني من قيود العصور الوسطى وشعور الفرد بحريته في التعبير عما يشعر به من انفعالات وأحاسيس، وعصر النهضة هو عصر تحرر العقل الإنساني من قيود القرون الوسطى، والنظر إلى العالم المحيط نظرة جديدة، وهو تاريخ لتحرير العقلية الإنسانية وشعور الفرد بالحرية والإستقلال.

هناك من ينظر إلى النهضة على أنها عصر قائم بذاته، وهى بالفعل عصر خطير ليس في التاريخ الأوربي فحسب بل وتاريخ العالم بأسره؛ تلك الفترة التى شهدت كل التغيرات التي طرأت على المجتمع والقانون ونظم الحكم، والعلوم والفنون والفلسفة والدين والأدب، حتى عصر ظهور الفرد، وعصر الأدب، وعصر الفن، وهو عصر التحول والهدم والبناء، وعصر المخاطرة، وعصر العلم الجديد، وعصر التهكم والضحك والمرح، وعصر مخألفة القوانين والتقاليد الأخلاقية، وعصر

الغدر والخيانة، وعصر السياسة الصاخبة، ومجد الأمراء والنبلاء والعظماء من الرجال.

✶ خصائص النهضة

تتمثل في الخصائص السياسية والاقتصدية والفكرية والفنية وغيرها، فأما عن السياسة فلم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذي نفهمه بها الآن، مفهومة في العصور الوسطى، فعلماء النظريات السياسية في العصور الوسطى، كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة، يحكمها البابا والإمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، الأول في الشئون الدينية، والثاني في الشئون الدنيوية، ولهذا فإنه يجب على كل الملوك إطاعتهما(٩).

وأثناء الإنهيار السياسي للإمبراطورية التي عرفتها العصور الوسطى بدأت الدول القومية تأخذ في النمو، ولكن في خطوات بطيئة ومضنية، وقد ظهرت في انجلترا أولاً حيث كانت الظروف ملائمة لنشأتها، ثم في إسبانيا والبرتغال وفرنسا وفي الولايات الكبرى من مجموعة الدويلات الألمانية، ومع بداية القرن السادس عشر توطدت دعائم النظم القومية في انجلترا وفرنسا وإسبانيا.

وفي مجال السياسة الخارجية يعتبر النصف الثاني من القرن الخامس عشر من الفترات المهمة والحاسمة في تاريخ أوربا، فالدولة البيزنطية قد انهارت بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وبدأت مرحلة جديدة بين الإسلام والمسيحية تتمثل في الدولة العثمانية ودول أوربا كلها، غير أن المد الإسلامي في الجهات الجنوبية الشرقية من أوربا قد تزامن مع

انحسار في الأجزاء الجنوبية الغربية مثال ذلك سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م[١٠].

ولما ظهرت النهضة بدأ الناس يفكرون في النظم الحكومية، وجاءت النظرية التي تقول بأن مهمة الحكومة هي السهر على مصالح الأمة، فبدأ الناس يعتقدون أن أصلح الحكومات أقدرها على أداء هذه المهمة، وبدأ ما نسميه بالعلوم السياسية وظهر الإيطالى "ميكافيللى" بآرائه السياسية في كتابه "الأمير".

ومن الناحية الاقتصادية فقد أصبح المال، وهو دائماًقوة يُحسب حسابها في شئون البشر، أكثر توافراً في أواخر العصور الوسطى، ونتيجة للتحرر الاقتصادي وبداية التحرر الاجتماعي، ستكون الحرية بكل صورها من خصائص ومظاهر النهضة الأوربية؛ فأخذ تحرر النفوس يظهر في النطاق الديني، وبعد أن كان نفوذ الكنيسة قوياً، ظهرت في لومبارديا جماعات من الأهالي أخذوا يتهكمون على الديانة المسيحية.

تميز عصر النهضة بظهور شخصيات ساهمت في ذلك مثل شخصية أبيلار الأستاذ بجامعة باريس، هو الذي مجد للعقل ودعا إلى إستخدامه فلا ينبغي أن يعتقد الفرد في شئ قبل أن يفهمه، وحتى الدين يجب تطبيق العقل عليه، ونادى بضرورة الحد من سلطة الكنيسة. كما ظهرت شخصية "يواكيم دافلورا" الذي تأثر بالثقافة التي سادت في جنوب إيطاليا، متأثرة بثقافة اليونان والرومان والبزنطيين والعرب والنورمانديين، وهذه الثقافة تخلق عقلية أقل تمسكاً بالدين،

والخضوع لسلطان الكنيسة، وأقرب منها إلى الحرية، حيث نادى بالحرية، وأن الله يحب الحق، فلابد أن يكون الإنسان حراً، ودعا إلى التغيير، واعتقد أن قادة العصر الجديد لن يكونوا من الكهنة. وهناك شخصية "القديس فرانشيسكو" وكان ممهداً لروح الحركة الإنسانية. حيث كان ينظر إلى البشر جميعاً نظرة واحدة، إذ أنهم إخوة في الإنسانية، فليست هناك طبقات اجتماعية، وكان يقدر المجرم واللص تلك الظروف التي أجرم أو سرق فيها، وكان معجباً بالطبيعة، ويخاطب عناصرها متمثلة في الشمس والنار والهواء ويعتبر أن الخالق موجود فى كل منها.

أيضاً من شخصيات عصر النهضة شخصية الإمبراطور "فردريك الأكبر أو الثاني"؛ حفيد "فردريك بربا روسا"، حيث كلن يحترم فردريك وفود الأديان الأخرى، وأصبح لكل من الديانات الإسلامية واليهودية والمسيحية مكاناً محترماً فى بلاطه، وأصبح يجتمع كثيراً بمفكري وعلماء المسلمين بل ويكاتبهم، واتصل بتلاميذ إبن رشد الذين كانوا يرون أن الإسلام يدعو إلى الفكر الحر والمناقشة، وعدم أخذ أي شئ إلا بعد ثبوته وأن للعقل المكان الأول في حياة البشر، وأن ما يروي عن المعجزات فجدير بالعامة، ولقد اهتم فردريك بالحركة العلمية؛ فأنشأ جامعة نابلي، وكلية الطب في بالرمو، وقام بتجارب عملية واشترك في بعضها في تشريح الجسم الإنساني، وكان بلاطه غاصاً بالمهندسين المعماريين المسلمين، فأقيمت مباني وكنائس متأثرة بالطراز العربى، بها كتابات عربية وكوفية في بعض الأحيان، وزاد الأمر حتى أنه أعلن

أنه لا يعقل أن يكون الله في نظر المسيحيين هو المتجسد في جسم معين، ولا يعقل أن الله قد ولدته إمراة عذراء، وأعلن بذلك ثورة خطيرة على المسيحية، ولقد عبر فردريك عن عصره، ولذلك فإنه يمكن أن نقول بأن فردريك أول رجل يمثل العصر الحديث، ويمثل روح النهضة.

ومن هذا ترى أن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة؛ وكانت علمانية وحاربت زيادة سلطة الكنيسة، وكانت عقلانية ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق، ولقد عملت هذه الحركة على إضعاف الكنيسة، وساعدت على إستمرار التغير الاجتماعي والفكري.

في عصر النهضة؛ فقد ظهر الفرد بنفسه في المجتمع، وأصبح بالتدرج أصله، بعد أن كانت الجماعة أو الهيئة، وبذلك تمهد السبيل أمام الفرد، لإظهار عبقريته واستغلال مواهبه كما يشاء. ومن خصائص النهضة أن أفسحت للنساء مجلاً ، وزادت في قيمتهن، لأن أهم ظاهرة في النهضة الإيطالية عبادة الجمال، وإحلال الفروق محل التقشف، وترك الأفكار المحزنة، والعناية بصحة الجسم ونشاطه فكثرت مناقشات السيدات في هذه الموضوعات التي تناسبهن، وقد تنوع نشاط النساء حتى شمل الرقص والغناء ودراسة الفلسفة والآداب القديمة، والعناية بالأسرة والملابس وحكم الأقاليم.

كما تميزت هذه الفترة بظهور بعض الكتاب والأدباء الذين ثاروا على الروح القديمة، وحرروا عقولهم من بعض قيود العصور الوسطى مثل الإيطالي "دانتي اليجيري" الذي يعتبر أول من استعمل اللغة الإيطالية في التأيف؛ فنشر كتابه الشهير "الكوميديا الإلهية" وهو عبارة

عن رحلة خيالية إلى الجحيم و"المطهر" و"الجنة"، وقد تأثر دانتي في كتابتها بـ "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعري من ناحية الفكرة.

وكان العالم الإيطالي "جاليليو" أول من استعمل المنظار في رصد الكواكب، وأيد رأي كوبر نيكس، كما أن اختراع "جوتنبرج الألماني الطباعة بحروف متحركة في منتصف القرن الخامس عشر، أزال العقبات التي كانت قائمة في سبيل انتشار العلم وتوسيع نطاق النهضة، وكان الإنجيل أول كتاب طبع في عام ١٤٥٥م يعد أكبر اختراع في العصور الحديثة وقد أحدث انقلاباً عظيماً في عالم الكتابة والآداب. كان انشغال مفكرو عصر النهضة بالماضى من أجل الحاضر، وكانت أعمال "فرانسيس بيكون" حرباً على وجهة النظر المسيحية، وقام باتخاذ الخطوات الرئيسية اللازمة لتجاوز "الحركة الإنسانية الإيطالية" في إشارته إلى المستقبل، وكانت الحركة الإنسانية الإيطالية حركة انتقال نحو الحياة العصرية، والبعد عن النظرة الضيقة لمفكري العصور الوسطى.

الفصل الثاني

النهضة في إيطاليا

تعد إيطاليا المهد الأول للنهضة في أوربا، حيث وصلت بها إلى حد الكمال والنضوج، ثم أخذت تنتشر منها إلى جهات أوربا المختلفة شيئاً فشيئاً، حتى عمت كل غربي أوربا[٣١]، ففي الفترة ما بين عام ١٣٤٠م، وعام ١٥٤٠م قامت المدن الإيطالية نتاجاً من الفن والبحث والأدب لم يشهده العالم منذ أمجاد أثينا القديمة[٣٢].

ولعل أهم دليل على بدء النهضة في إيطاليا قبل غيرها من الدول الأوربية الأخرى هو تحرر المدن الإيطالية من سيطرة الإقطاع قبل غيرها من الدول الأخرى، وأصبحت عبارة عن دويلات صغيرة، وقد حكم هذه المدن حكام مطلقون، في فلورنسا كانت السيطرة لأسرة "مديتشى" . وقد تمثلت مظاهر النهضة في إيطاليا في الآتي:

١-جمع المخطوطات:

جمع المخطوطات القديمة التي غصت بها مكتبات الأديرة والكاتدرائيات، وقد أسهم أمراء الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية في جمع هذه المخطوطات والكتب القديمة النادرة، وأفدوا العملاء لهذا الغرض في أوربا والشرق، كما شجع الباباوات والكاردينالات هذه الحركة، وأنفقوا أموالاً طائلة للبحث عن هذه المخطوطات في إيطاليا والإمارات الألمانية وغيرها من أقطار أوربا.

٢-إنشاء المكتبات العامة والخاصة:

أنشئت مكتبات عديدة جديدة في عدة مدن نابولي وبافيا وغيرها ففي أوربينو أنشأ أميرها مكتبة عظيمة أنفق عليها أموالاً طائلة وكانت تضم عدداً وافراً من المخطوطات اللاتينية والعبرية، وجميع كتب الطب الموجودة ومؤلفات الكُتَاب الإيطاليين في القرن الرابع عشر، بل لقد تنافس الأمراء والأثرياء والمدن في إنشاء المكتبات التي ضمت المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن، فزاد عددها في إيطاليا، وكان أشهرها مكتبة البندقية ومكتبة فلورنسا ومكتبة الفاتيكان.وقد روعي في إنشاء هذه المكتبات وضع الكتالوجات حتى يسهل الإطلاع على ما فيها، بل أن مكتبة أوربينو كانت تحتفظ بكتالوجات لمكتبات الفاتيكان وسان ماركو بفلورنسا وكتبة بافيا.

٣-الأكاديميات:

حتى أن النصف الثاني من القرن الخامس عشر يعتبر عصر الأكاديميات، وكانت هذه الأكاديميات عبارة عن مراكز أو حلقات يجتمع فيها عشرات الطلبة حول الأساتذة للإستماع والدراسة، وعن طريق الأكاديميات التي انتشرت في إيطاليا انتشرت الحركة الإنسانية، وأقدمها في عصر النهضة نشأ في نابولي على يد "ألفونسو الخامس" صاحب أراجونة، وفي فلورنسا نشأت الأكاديمية ألفلورنسية أو الأكاديمية الأفلاطونية، وقد اهتمت بالدراسات الفلسفية الإغريقية خاصة الأفلاطونية، وقد استمرت حتى أوائل القرن السادس عشر، كما نشأت

أكاديمية الدومانو تزيوخ البندقية، والأكاديمية الرومانية في روما وغيرها.

٤-تقدم علم التاريخ:

لأول مرة أخذت الدراسة التاريخية على أساس المادة الموثوقة وليس على أساس الرواية والسماع، كما أخذت الدراسة التاريخية تصطبغ بالصبغة الزمنية، وتنتقل من يد رجال الدين إلى العلمانيين، وكان من أبرز مؤرخي عصر التهضة "لورنزو الذي وُلِدَ ونشأ في روما.

٥-ظهور اللغات الحديثة:

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجي على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم، حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، وهو بالتالي يعد المظهر الثالث من مظاهر النهضة[٣٩]؛ فمنذ عهد الدولة الرومانية القديمة، كانت هناك لغة لاتينية عامية إلى جانب الفصحى، ولم تكونا لغتين مستقلتين بل كانت من أصل واحد، وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والإقليمية وزاد الإختلاف والفوارق بين اللهجات العامية واللغة الفصحى، حتى تطورت هذه اللهجات إلى لغة ثانية هي اللغة العامية التي أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى[٤٠]، وقد دعت طائفة تطلق على نفسها اسم طائفة الإنسانيين إلى إحياء اللغات القديمة (اللاتينية واليونانية)، وأن اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها لهجات تفاهم بين أفراد شعوبها، بل أصبحت لغات تأيف وكتابة أدت إلى ازدهار اللغات القومية[٤١].

وإذا اتخذنا إيطاليا مثلاً؛ فإن لهجة توسكانيا هي التي أصبحت أساس اللغة الإيطالية، ويرجع تفوق توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا في إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين قرضوا الشعر باللهجة العامية.

٦-تطور الفنون الجميلة:

كان من الطبيعي بعد أن خفت قبضة الكنيسة على الحياة الاجتماعية في أوربا، مع ظهور طبقة مادية النظرة إلى الحياة كالطبقة البرجوازية، أن ينعكس ذلك على الفنون، التي كانت في العصور الوسطى موجهة لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية بوجه عام، إذ دبت فيها روح علمانية متحررة من تزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك بصفة خاصة في فن الرسم وفن النحت وفن العمارة.

وبالنسبة لفن الرسم فيعتبر الفن الأول لعصر النهضة في إيطاليا، وقد اصطبغ بصبغة دنيوية سافرة، وتحرر من قيود وتزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك في إبراز أجزاء جسم الإنسان وتصوير جمال الوجه والطبيعة، وقد تنافست المدن الإيطالية في هذا القرن، وبرزت فيها اثنتان هما: فلورنسا والبندقية[٤٣].

كان فن التصوير مقصوراً على موضوعات خاصة كالدينية أو الكنسية، وكانت مقيدة في أشكالها وأوضاعها وألوانها بشكل أدى إلى طمس شخصية الفنان، ولكن مع تطور النهضة تحرر الفنان وتمكن من رسم الطبيعة والتعبير عن مشاعره، وأفاد من دراسة جسم الإنسان والتشريح، ومن استخدام الألوان الزيتية وتحسينها، ولم يهمل الفنان

الموضوعات الدينية، فجعل صور العذراء والقديسين تمثل رجلاً ونساءاً عاشوا في زمن الفنان.

ولقد بدأ التصوير في إيطاليا في القرن الرابع عشر، وظهرت بعض مدارس للتصوير في فلورنسا وغيرها وبعض كبار المصورين، ومن أشهرهم "جيوتو" الذي كانمصوراً ومهندساً معمارياً ونحاتاً، وكان صديقاً لـ "دانتي"، ومن أشهر الصور التي رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة، ومريم العذراء تحمله وهى جاثية، وحوله بعض القديسات والملائكة، وقد ارتسمت علامات الحزن والمآسى على وجوه الجميع، وهو الذي مهد الطريق لظهور عظماء المصورين مثل: "ليوناردو دافنشي" و"مايكل أنجلو" "رفاييللو سانتزيو".

ويعتبر ليوناردو وأنجلو زعيما المدرسة الفلورنسية، ويتميزان بأن نشاطهما الفني لا يقتصر على الرسم، بل يتعداه إلى بعض الفنون الأخرى، أما ليوناردو فقد اشتمل نشاطه على التصوير والنحت والموسيقى والأدب والهندسة العسكرية والعلوم الطبيعية، وأن قامت شهرته على فن الرسم.

ومن أشهر صور ليوناردو "الجيوكندا" المعروفة أيضاً باسم "الموناليزا" نسبة إلى صاحبتهما، وتعتبر الصورة معجزة فنية تمثل سيدة تجلس أمام شرفة رخامية واضعة يدها اليمنى على معصم يدها اليسرى، ومع أن السيدة لا تبدو على جانب كبير أو قليل من الجمال، كما أن ليوناردو ترك عينيهما دون هدب، إلا أن الإبتسامة الغامضة التي تكسو وجهها وترتسم على وجنتيها وشفتيها، ظلت موضع سحر

وإعجاب الفنانين. أما مايكل أنجلو فقد برع أيضاً إلى جانب الرسم في النحت وهندسة البناء والشعر الإيطالي، وبلغ في ذلك مستوى رفيعاً، ومن أهم أعماله في فن الرسم "صورة يوم الحساب" وهي تمثل البشر رجلاً ونساءاً وهم يخرجون من القبور. كذلك من أهم أعماله الفنية أيضاً صور السقف في كنيسة "سستين" بالفاتيكان، التي استغرق إنجازها ثماني سنوات.

كان رفاييللو أعظم رسامي النهضة الذي جسد بفنه العبقرية االإيطالية، ومن أعماله "صلب المسيح"، و "تتويج العذراء"، و "التجلي"، و "مدرسة أثينا"؛ التي استوحاها من وصف دانتي لها في "الكوميديا الإلهية" وتمثل الفلاسفة والعلماء الأقدمين، وقد وقفوا في أوضاع مختلفة.

وعلى كل حال فقد كان يغلب على فن النحت بصفة عامة المظهر الوثني القديم ، نظراً لأن التماثيل الرائعة التي خلفها الرومان كانت لاتزال موجودة في إيطاليا ، فكانت هذه التماثيل مصدر إلهام لنحاتي عصر النهضة، مما ساعد على ازدهار فن النحت، وكان وراء حرص الفنانين على إبراز مفاتن الجسم بكل أعضائه دون التقيد بأخلاقيات أو غيرها فأخرجوا إنتاجا فنياً مبدعاً.

✶ عوامل جعلت من إيطاليا المهد الأول للنهضة

١-المدن الإيطالية:

كانت مدن إيطاليا "فلورنسا ووجنوة والبندقية" مهيأة بموقعها ومركزها لاستقبال العلوم والفنون، فإن هذه المدن نفضت عنها أعباء

العهد الإقطاعي كما سبقت الإشارة، وأصبحت مستقلة، لا سيد عليها غير القانون، وساعد الكفاح المستمر فيها على أعمال الفكر، وكثرت الثروة فيها بسبب اتساع تجارتها ووفرة صناعاتها، وانصرف طلاب العلم والفن إلى دراسة العلوم والآداب والفنون القديمة، ورأي الناس حولهم صوراً دقيقة الصنع، وأثاثاً فاخراً، وقصوراً شاهقة، فصرفوا المال لإشباع غاياتهم من الفن الجميل، وتخلص سكان هذه المدن من قيود العصور الوسطي.

وقامت بهذه المدن حكومات مستنيرة قوية، وكانت أنظمة هذه الحكومات تشبه بوجه عام نظام الحكومات التي قامت أيام عظمة الحضارة الإغريقية القديمة، وكان من مميزات هذه الحكومات إشراك الشعب في سياستها، ومساندة أمرائها للفنون، فكان ذلك باعثاً للأدباء وأهل الفنون على النبوغ والإبداع ، ثم أخذت كل مدينة تنافس غيرها في عمل واقتناء أنفس الكتب وإبداع الصور، وتشييد أفخر المباني والمعاهد والكنائس(٤٦).

٢-مركز إيطاليا الجغرافي :

إن وقوع إيطاليا في مركز متوسط على ساحل البحر المتوسط في عصر كان فيه هذا البحر مركز تجارة العالم، اكسبها أهمية لا تقدر، وقد أصبحت حلقة الاتصال بين أوروبا، وبلاد شرق البحر المتوسط، والشرق الأقصى، فاتسعت تجارتها ونمت صناعاتها، فكثر ثراء مدنها، كالبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان، والثراء يولد الرغبة في الحرية، ويمهد السبيل للإشتغال بدراسة الفنون والعلوم والآداب.

ونعرف أن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطي، وأنها أسهمت بنصيب وافر في ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر، وكانت مراكز الحضارة الإسلامية موجودة في كل مكان، وكان أقربها إلى أوربا يتمثل في جامعات الأندلس في الغرب، وصقلية وتونس في الوسط، ومصر والشام في شرق البحر المتوسط، وكانت هذه المراكز المتقدمة للحضارة الإسلامية تُحيط بإيطاليا من كل اتجاه، كانت تعتبر معابراً ونقط اتصال علمي وحضاري، بين الشرق والغرب نحو قرنين من الزمان، وقف خلالها أهل أوربا على حضارة الرق، وجاء الكثير من طلبة العلم من الغرب إلى هذه المراكز يدرسون ويتعلمون ويقتبسون ويفكرون، الأمر الذي ساعد على ازدياد أهمية الموانى، علاوة على أهميتها العسكرية في الحروب الصليبية، وأهميتها الاقتصادية في التعامل في التجارة بين الشرق والغرب(٤٧).

وكانت إيطاليا بفضل موقعها قريبة من أقاليم الدولة البيزنطية، فسهل على طلاب العلم من الإيطاليين أن ينزحزا إلى جهات هذه الدولة، كما سهل على علماء الدولة البيزنطية أن يفدوا إلى المدن الإيطالية كأساتذة زائرين وينتشروا العلم فيها ويكونوا شبه مدارس علمية في هذه المدن.

٣-الحضارة الرومانية القديمة:

ولما كانت إيطاليا مهد الحضارة الرومانية القديمة، فقد ساعد ذلك على أن تكون أسبق الدول إلى الدخول في ميدان النهضة، فقد

كانت ذات الكنوز الدفينة في العلوم والآداب والنقش والتصوير والآثار والمسكوكات فجعل الإيطاليين على اتصال وثيق بآداب الرومأن وفنونهم وقوانينهم، فتأثروا بذلك، وتطلعوا ليكونوا ورثة أجدادهم الورمان، في إحياء مجدهم الذي أتت عليه الأيام.

ولما كانت اللغة الإيطالية قريبة من اللغة اللاتينية فقد سهل عليهم تعلمها، وبذلك استطاعوا الإستفادة من مخلفات أجدادهم في الآداب والعلوم والفنون فساعدهم ذلك على ظهور ميدان التقدم والنهضة قبل غيرهم من الشعوب الأوربية، فقد كانت إلاثار الرومانية القديمة بمثابة نماذج للإيطإليين(٤٨).

٤ – مقر البابوية:

كانت روما قِبلة العالم المسيحي الغربي، الأمر الذي كان يثير اعتزاز الإيطاليين بها، وكانت الكنيسة من القوي المضادة للتقدم والتطور، ولكن نزولاً إلى ميدان السياسة العلمانية والتوسع الإقليمي كإمارة ودولة، وصراعها مع الإمبراطورية، أدى بالتالي إلى ضعفها، وزاد من هذا الضعف انتشار الفساد فيها، الأمر الذي سهل مهاجمتها، ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوربا، وأخذ بعض البابوات المستنيرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات واقتناء الكتب وبناء الأكاديميات، وجمع القطع الفنية ن والعمل على تجميل مدينة روما، وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا في رعاية العلوم والفنون والآداب، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم واشتهروا في التاريخ باسم بابوات النهضة، ومن أشهرهم نيقولا الخامس(٤٩)، الذي

وضع أسس مكتبة الفاتيكان في منتصف القرن الخامس عشر البابا ليو العاشر (١٥١٣-١٥٢١)م، أخذ في البدء في إنشاء كنيسة القديس بطرس.

ولما كان الإيطاليون أقرب الشعوب إلى مقر البابوية، أصبحوا أشد من غيرهم ألفة واختلاطاً برجال الكنيسة، وأكثرهم وقوفاً على نقائص رجال الدين وعيوبهم وأخطائهم، أوسعهم علماً بما دخل الدين من بدع وخرافات لا تمت إلى الدين بنسب، ولهذا لم يعودوا يخافون تهديد الكنيسة، ولا يخشون سلطة رجال الدين، كإخوأدانهم خارج إيطاليا، فكانوا لذلك أسبق الشعوب في تحطيم قيود العصور الوسطي وأغلال الكنيسة(٥٠).

أهم مراكز النهضة في إيطاليا:

عمت النهضة كل إيطاليا، ولكن فلورنسا وروما قد برزتا في هذا المضمار، فقد كانت فلورنسا تحت حكم " اَل مدتشي "، وكانوا أمراء ديمقراطيين، ذاع سيطهم في المقدرة الإدارية، وفي معاضدة العلوم والفنون، فبرع تحت رعايتهم "دوناتلو"، والذي أبدع في تمثيل حياة الناس وبخاصة الأطفال في تمثايل من المرمر والبرنز، وقد بلغ "جيبرتي" حد السحر في الحفر والباز، ومن مظاهر النهضة في فلورنسا قيام مدارس على النمط الذي دعا إليه " روسو" فيما بعد، من بغض الترف وحب البساطة، والجمع بين البنين والبنات في مدرسة واحدة، بقصد تخريج أناس مثقفين بدنياً وروحياً لا مجرد فلاسفة. ولما ظهر الفن نال تشجيع روما كذلك، واستخدم للتعبيرعن الأفكار الدينية وإنشاء

الكنائس الفخمة ولهذا نري البابا "يوليوس الثاني" يكلف "ميخائيل أنجلو" ونضع تصميم كنيسة تفوق كل ما سبقها في النسب والجمال، والتسلط على خيال الإنسان، فكانت كنيسة الرسول بطرس الجديدة مظهراً لعظمة الكنيسة العامة ووحدتها، ودالة على سلطة رئيسها، وقد جمع البابوات في روما عدداً من نوابغ الفنانين قل أن يجتمع مثله في صعيد واحد. ومن هؤلاء ميخائيل أنجلو صاحب الإبتكارات في النحت والتصوير والهندسة الحربية والمعمارية في عصر النهضة، وبلغ من حبه للجمال أن حرم على نفسه تصوير الوجوه، خشية أن يكلف بتصوير وجه قبيح، ومنهم أيضاً "روفائيل" وكان مهندساً معمارياً ومصوراً، من معاصري أنجلو.

الفصل الثالث

الكشوف الجغرافية

✶ العوامل التي ادت إلي الكشوف الجغرافية:

١-الحملات الصليبية:

كان من أثر الحملات الصليبية، أن اعتاد الأوربيون الأسفار وتحمل المشاق، واتسعت معلوماتهم عن الأرض، وما بها من أقطار مختلفة، وقد لعبت العوامل الدينية دوراً كبيراً في حركة الكشوف الجغرافية، كما لعبت دوراً كبيراً في تخطيط سياسة كل من البرتغال وإسبانيا أثناء حركة الكشوف، حيث تمتلكهم رغبته قوية في مطاردة المسلمين في غرب أفريقيا وتحويلهم إلى المسيحية. وفي القرن الثالث عشر أخذ بعض الرحالة من الأوربيين يقومون برحلات طويلة في جهات الشرق، وأهمهم الرحالة " ماركو بولو" وهو من أهالي البندقية، قام برحلة مع أبيه وعمه إلى بلاد الصين، حيث قضي نحو من عشرين سنة، عاد بعدها إلى بلاده عام ١٢٩٥م حاملاً الكثير من الأحجار الكريمة، حتى سماه مواطنوه "ماركو صاحب الملايين".

٢- العامل الاقتصادي:

كانت أوربا في حاجة شديدة إلى البهارات والتوابل التي كانت تستورد من الشرق والتي كانت تصل أوربا عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط، والبحر الأحمر ثم دمشق والقاهرة، وإلى أوربا عن طريق المدن الإيطالية، وقد فكر الأوربيين في ايجاد طريق آخر يصلون من خلاله إلى الشرق وبالتالي إنهاء عملية الإحتكار هذه

التجارة من قبل المماليك في مصر والبندقية، من المؤكد أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً مهما في دفع حركة الكشوف الجغرافية إلى الأمام. ومن المعروف أن الدافع الأساسي لهنري الملاح في جهوده الإستكشافية هو العامل الاقتصادي بجانب العامل الديني.

✶ حركة الكشوف البرتغالية

كانت البرتغال أول دولة أوربية بدأت حركة الكشوف الجغرافية، وقد حظيت فكرة الكشف هذه بتأييد ورعاية الأمير البرتغالى المعروف "هنري الملاح"، كما كان مسيحياً متحمساً لنشر المسيحية بين سكان القارة الأفريقية، وقد قاد هنري حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، كما كان رئيساً لهيئة اليسوعيين "الجزويت" وبالتالي كان يهمه العمل على كسب أراضي وميادين جديدة للمسيحية، وقد أمضي نحو أربعين عاماً في إعداد الحملات الإستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقيا الغربية، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة في المحيط الأطلسي.

✶ حركة الكشوف الإسبانية

إذا كان اكتشاف أمريكا الشمالية قد ارتبط باسم كولومبوس فإن معرفة أمريكا اللاتينية التصق باسم الرحالة الفلورنسى "أمريجو فيسبوتشي" والذي لعب دوراً كبيراً في اكتشاف العالم الجديد، وعليه فقد أطلق اسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إليه، إذ أنه كان قد اصطحبه كولومبوس في إحدى رحلاته عام ١٤٩٩م، والذي كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية، وكان أول من نادى بأن الأرض الجديدة لم تكن آسيا فأصر "لوران دي مدسيس" على اطلاق اسمه

على العالم الجديد، رغم أن الأوربيون ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد باسم الهند[٢٦].

ويعتبر كولومبوس رائد حركة الكشوف الإسبانية، والذي كان من إيطاليا من جنوة، درس الجغرافيا والرياضيات والفلك، بل وكان شاعراً ومسيحياً وواقعياً في نفس الوقت؛ كان شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة في عصره، ومسيحياً لأنه كان مستعد للقيام بحملة صليبية جديدة، وأما واقعياً لأنه اعتقد في أن الأرض كروية، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب، ما قام أجداده بالبحث عنه الشرق[٢٨].

✶ نتائج الكشوف الجغرافية

١- كان البحر المتوسط طريق التجارة في العصور الوسطي ومركز النشاط االسياسي، وبعد هذه الكشوف انتقل ذلك المركز إلى المحيط الأطلنطي الذي أصبح طريق التجارة العالمية في العصر الحديث وانتقل مستقبل أوربا التجاري من مدن البحر المتوسط والشمال إلى البرتغال وإسبانيا، ثم إلى هولندا وانجلترا التي كانت تقع على الطرق الغربي للدنيا القديمة، وأصبحت في قلب الدنيا بعد الكشوف الجديدة عرفت هذه الحركة الاقتصادية في التاريخ باسم "الثورة التجارية"

٢- تكونت إمبراطورية إسبانية وأخرى برتغالية وفتح باب الاستعمار أمام الدول الأخرى التي لم يلبث أن دخلت الميدان لتأخذ بنصيب من الأملاك الجديدة ودعا هذا التنافس في البحار حتى أصبحت الأساطيل البحرية من الأحوال عوامل التغلب والانتصار، كذلك سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرات لصالح مما أدى إلى تذمر

السكان وثورتهم في النهاية طلباً لدفع نير الاستعمار الذي كان فاتحة لسيل من الهجرة من أوربا إلى ذلك الإصقاع.

٣- عمل الإسبان والبرتغاليون على نشر الدين المسحي والمذهب الكاثوليكي بين أهالي المسكيك وأمريكا الجنوبية، حيث وجدوا في ذلك أكبر تعويض للكنيسة الكاثوليكية عن نفوذها الذي ضاع في كثير من جهات أوربا، على أثر انتشار البروتستانتية في كثير من جهاتها بعد ظهور حركة الإصلاح الديني.

٤- ازدهرت كمية المعادن الثمينة ولاسيما الذهب والفضة واتخذت طريقها إلى أوربا فحل النقد محل المبادلة في البيع والشراء وانخفضت قيمة العملة وارتفعت الأجور وأثمان السلع وتحسنت الحالة الاقتصادية في أوربا نتيجة لازدياد النشاط التجاري وإنشاء الصناعات الجديدة وزيادة رؤوس الأموال.

٥- أخذت المحصولات الجديدة ترد إلى أوربا كالذرة والبطاطس والكاكاو والكينا والتبغ، وأصبحت عاملاً مهما يلعب دوره في الحياة الاقتصادية، كما اضحت من الضروريات بعد أن كانت من الكماليات.

٦- زادت أهمية علم الجغرافية، واتسع ميدان البحوث الجغرافية وتغيرت أفكار أهالي أوربا عن الأرض وحجمها وشكلها، ومن فيها وما فيها، كما لفتت هذه الكشوف الأنظار إلى ضرورة تحسين بناء سفن، ووسائل إرشاد الملاحين حتى يقبلوا على الأسفار والتجوال في البحار، وهكذا أقبل الناس على البحث العلمي والتفكير الحر

دون الاعتماد على الآراء القديمة التي كانت سائدة أو التقيد بأفكار العصور الوسطي.

٧- كذلك اتسع ميدان علم التاريخ، فبعد أن كان مقصوراً في العصور الوسطي على عالم ضيق الأرجاء وهو المعروف في ذلك الوقت أصبح المجال أمامه واسعاً باتساع رقعة الراضي المعروفة على سطح لكرة الأرضية نتيجة للكشوف الجغرافية.

٨- قاسي سكان البلاد الأًصليين كثيراً من المستعمرين فكان هذا الاتصال كارثة عظمي عليهم وخاصة في أمريكا الشمالية، حيث كان يعيش الهنود الحمر، حيث قضت على الكثير منهم الحروب، والأوبئة ومن بقي منهم عاش في معزل عن المستعمرين، وأخذ عددهم في التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل في غرب الولايات المتحدة وكندا غير أن الحالة كانت أخف وطأة في أمريكا الجنوبية، إذ بعد هدوء الزوبعة الأولي زوبعة الفتح والتملك، وأخذ السكان الأصليون يختلطون بالإسبان والبرتغال وتعلموا لغتهم واعتنقوا دينهم، ومن خلال الإمتزاج نشأ الجيل الحاضر بعكس ما حدث في أمريكا الشمالية.

٩- كما ترتب على حركة الكشوف الجغرفية أن تحولت الثروة من طبقة ملاك الأرض إلى طبقة جديدة وهي طبقة التجار، وسيكون لانتعاش الطبقة البرجوازية التجارية دور مهم فيتطور نظم الحكم في العصر الحديث، وسياسياً قد نتج عن حركة الكشوف نشأة

الاستعمار وازدياد تنافس الدول الأوربية على السيطرة في العالم الجديد وآسيا وأفريقيا(٥٢).

مما سبق تتضح الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات، بل كانت الدافع الأساسي لها، ويتضح ذلك من مشروعات " البوكرك" وأقواله (وهو الذي خلف فاسكو دي جاما) فقد كان يقول : أنه يريد انجاز مشروعين من مشروعاته قبل وفاته وهما:١-تحويل مياه النيل إلى البحر ليحرم مصر من ري أراضيها لأن مصر كانت في ذلك الوقت أهم دولة إسلامية من حيث موقعها وعدد سكانها وامتلاكها مساحة واسعة من الأرض في بلاد الشام وبلاد الحجاز.٢-تهديم المدينة المنورة ، ونبش روضة سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-، وأخذ كنوزه - شُلت أيديهم وأفكارهم الشيطانية- حيث كان يتصور أن الروضةملِ ئة باللاَلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرقة رفات الرسول – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في فلسطين.

الفصل الرابع

حركة الإصلاح الديني

كانت ألمانيا من أكثر البلاد معاناة من مساوئ الكنيسة، فعلى سبيل المثال كانت أملاك الكنيسة كبيرة في جميع البلاد المسيحية، لكن في ألمانيا وصلت أملاك الكنيسة إلى نصف الممتلكات الألمانية جميعاً، وكانت الشرارة البادئة لمشاكل ألمانيا هي رغبة الأمير ألبرت في الاحتفاظ بكنيستي ماجدة بورج وهالبرج اشتاد– اللتين كان يرأسهما بالفعل – بجانب أطماعه الجديدة في كنيسة ماينس وهو ما كان يخالف قوانين الكنيسة، وكان ألبرت على استعداد بدفع ثمن هذا المنصب، وكان "البابا ليو" في حاجة للمال لتجديد كنيسة القديس بطرس، ولأن ألبرت لم يكن يملك السيولة الكافية لدفع المقابل نقداً فإن "البابا ليو" سمح له بقرض كبير بسعر فائدة عال فوق العادة، وكانت المشكلة هي كيف يرد الأمير ألبرت هذا الدين؟، لقد سمح "البابا ليون" للأمير ببيع صكوك الغفران لمدة ثماني سنوات، بحيث يعود نصف عائدها للبنوك والنصف الآخر للبابا لأصلاح كنيسة القديس بطرس، وتم تعيين القس تتسل في مهمة التسويق لتلك الصكوك، وكان ممكناً لتتسل أن يستمر في هذه المهمة لولا ظهور مارتن لوثر الذي لم يعجبه هذه الأحوال.

ساعد على ظهور حركة الإصلاح الديني في أوروبا بألمانيا هو ظهور بعض المصلحين الدينيين؛ أمثال: مارتن لوثر، زونجل،كلفن.

✶ مارتن لوثر "Martn Luther":

ولد مارتن لوثر في عام ١٤٨٣م بإحدى قرى إمارة سكسونيا التابعة لألمانيا من أبوين فقيرين، ولكنه أتم تعليمه الجامعي، ثم دخل ديراً تابعاً لطائفة القديس أوغسطين سنة ١٥٠٥م، وأتيحت له في سنة ١٥١١م فرصة زيارة روما، ولكنه صدم لما رآه فيها من حياة التبذل وانهيار القيم الأخلاقية، وابتعاد حياة رجال الدين عن تعاليم المسيحية وشغل يعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتنبرج سنة ١٥١٢م، ونجح في التدريس والوعظ. صُدِم مارتن لوثر حين جاء أحد الرهبان إلى المدينة فى عام ١٥١٧م ليبيع صكوك الغفران وكان جاهلاً، وأدعي أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكب من آثام وخطايا، وحتى أكبر الكبائر، ولما كان الغفران لا يتم إلا بناء على توبة واعتراف وتكفير، بالإشتراك في الحروب الصليبية وفي الحج إلى روما وزيارة قبور القديسين، ثم نسي بعض رجال الكنيسة التوبة والإعتراف، وأصبح التكفير يعني شراء صكوك الغفران وكان الغفران منحة إلهية، ونسي البابوات ذلك وأصبحوا يضمنونه لمن يشتري الصكوك، فثارت نفس مارتن لوثر، وانتهز فرصة اجتماع أهالي "وتنبرج" بمناسبة عيد الشهداء، وبمناسبة تدشين "كنيسة الأمير ألبرت" وعلق على بابها احتجاجاً على بيع صكوك الغفران يشتمل على خمسة وتسعين فقرة، هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية، ونظرتها إلى الغفران، وهاجم فيه سلطان الكنيسة وتعاليمها، واصر على ضرورة اتخاذ الكتاب المقدس وحده دستور لتفسير أي موضوع يختلف عليه في العقيدة[٢٣]، أي أن

لوثر هاجم الغفران بقواعده الثلاثة التي أشرنا إليها، ثم أخذ يبسط عقيدته في التبرير بالإيمان، وهي أن الغفران مربوط فقط برحمة الله.

وتتلخص الحجج التي تضمنها احتجاجاته عام ١٥١٧ في الآتي:

١-أن الغفران لايعدو لأن يكون الاعتاق من العقوبات الكنيسة وليس الاعتاق مما فرضه الله.

٢-أن صك الغفران لايمكن أن يمحو ذنباً، لأن البابا لا يستطيع ذلك.

٣-أن صك الغفران لايمكن أن يخلص الإنسان من العقوبة، وإنما الله وحده الذي يحتفظ بهذا الحق بين يديه.

٤-أن صك الغفران لا يمكن أن يفعل شيئاً للروح في "المطهر" حيث أنه لا يسري إلا على ما توقعه الكنيسة من عقوبة، وهي عقوبة متعلقة بالحياء، وتسقط بالموت، وكل ما يستطيع أن يفعله البابا للروح في المطهر هو الصلاة فقط.

٥-أن طريق المغفرة والصفح من الله، هو التوبة الصادقة وحدها[٢٤].

ولم يمض أسبوعان على هذا الحادث حتى كانت قد ذاعت أنباء هذه الحجج وترجمت من اللاتينية إلى الألمانية، ولم يمض شهران حتى كانت أوربا بأسرها تناقش هذه الحجج التي وضعها الراهب السكسوني، على أن لوثر مضي خطوة أخرى، ففي مناقشة مع "يوحنا تتزل" "John Tetzel" ومع غيره من علماء اللاهوت واقدرهم" يوحنا ايك "John Eck" أستاذ اللاهوت بجامعة "أنجولشتات فقد لوثر نظام

الكنيسة وسلطتها العليا. أدت هذه المناظرة إلى إعلان لوثر أن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة، ولم تكن معروفة أيام الرسل الأولين، فلما علم البابا بذلك، لم يسعه إلا اصدار قرار البابا علناً، فطلب البابا إلى الإمبراطور شارل الخامس تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر، فدعاه شارل إلى الحضور أمام المجمع الألماني، وطلب إليه أن يرجع عن زيغه، فأبي إلا أن يقتنعوه بحجج من الكتاب المقدس، فحكم عليه بالطرد خارج القانون، واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، فحكم عليه بالطرد خارج القانون واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، ولكن سلطة المجمع كانت ضيقة، وكان كل أمير حراً في تنفيذ قرارات المجمع وإهمالها، ومن أجل هذا كان المهم رأي سكسونيا، الذي يعد لوثر من رعاياه.

بينما كان لوثر مهدداً بالقبض عليه في أية لحظة، حمله أصحابه إلى أحد حصون سكسونيا، في حماية أميرها، وفي مختبأ به عامين، وترجم في اثنائها الإنجيل من الإغريقية إلى اللغة الألمانية، فكان ذلك أول كتاب قيم طبع بهذه اللغة، ففتح لها عهدا من جيدأ، ومن ذلك الوقت سهل على الشعب أن يطلع على الكتابات الدينية بنفسه، وكثر أنصار لوثر[٢٧] فأن كل طبقة كانت تري مصلحتها في الإنضمام إليه، فكان الفلاحون يريدون التخلص من بقية قيود الإقطاع، والفرسان يريدون توسيع نفوذهم، والأمراء يرغبون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة، ومهاجمة الأراضي التابعة لها سنة ١٥٢٣م، واستولوا على أراضيها وقسموا بعضها على صغار الفلاحين[٢٨] وأخيراً فإن

"جامعة وتنبرج" منحت مارتن لوثر منبراً يشرح فيه فكرة عقيدته، وبشكل ساعد على انتشار هذا الإتجاه الجديد[٢٩].

ولم يلبث لوثر أن كتب البابا رسالة بعنوان "فيما يمس الحرية المسيحية" قال له فيها "أنك لا تستطيع أن تنكر أن ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية هي أفسد من بابل وسدوم، ولقد أظهرت احتقاري حقاً وانتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية، لهذا قاومت وسأظل أقاوم ما وُجِدَ في عرق ينبض بروح الإيمان[٣٠]

ولقد عُرِفَ أنصار المذهب الجديد بـ "البروتستانت" أي المحتجين أو المعترضين، فانقسمت أوربا إلى معسكرين أحدهما يذود عن الكاثوليكية، والآخر يدعو إلى البروتستانتية التي سرت في جميع أجزاء أوربا الشمالية سريان النار في الهشيم، فعفا المذهب القديم منها، واعتنق الكثير من البروتستانتية وبدأ عهد الصراع والحروب اللاتينية في أوربا[٣١] وواصلت مؤلفات مارتن لوثر الناضجة في نظريات الكنيسة التشديد على اعتماد الكنيسة على كلمات الأسفار المقدسة، والقول بأن تعريف الكنيسة مستمد من هذا المفهوم والمعني؛ أي أن موضع الكنيسة الحقة لا ينبغي تحديده على أي نحو في مدينة بالذات، لأن الكنيسة الحقة بمقدورها أن توجد حيثما تتردد كلمة الكتاب المقدس بصدق وتتغذي بها الكنيسة[٣٢].

ولقد ارتبط بحركة مارتن لوثر ثلاث حركات أخرى، مرتبطة بالفكر والعقيدة وبالسلطة وبالمصلحة، حتى المادية[٣٣]، وكانت كالآتي:-

١- حركة الآناباتبين"(حركة المطالبون بإعادة التعميد) في "ترفيكاوسكسونيا" سنة ١٥٢١م على يد جماعة متطرفة من أنصار مارتن لوثر، على رأسهم "توماس مونزر" رأت أن تعميد الأطفال (تغطسيهم ثلاث مرات في الماء على اسم الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس) من أجل صلاحهم،

٢-حركة الفرسان "Knights":

كان الفرسان قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم، فوجدوا في حركة لوثر فرصة لاسترداد نفوذهم وتوسيع ممتلكاتهم، فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من تماثيل، واستولوا على أملاكها وارضيها ولكن الأمراء قاموا بضربهم، والقضاء على حركتهم، حتى يبقوا هذه الممتلكات في أيدي الكنيسة إن كان الأمراء من الكاثوليك،

٣-ثورة الفلاحين "Peasants War"

كانت أعنف الحركات، وانتشرت في جميع أنحاء ألمانيا، فقد قامت في التيرول وادستريا وفرانكونيا وسوابيا، وهي عبارة عن سلسلة من الثورات التي قام بها الفلاحون فيما بين سنتي ١٥٢٤م و١٥٢٥م، وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية ولقد ربط الفلاحون بين الاتجاه الفكري والعقائدي لحركة لوثر، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وهكذا لم يعد لوثر في نظر الألمان مصلحاً دينياً فقط، بل زعيماً قومياً أيضاً، ولهذا نجحت دعوته لأنها دعوة إلى التحرر من السيطرة

الأجنبية كما أن حركة لوثر أدت إلى نشوء البروتستانتية وانقسام العالم المسيحي(٤١).

☒ أولريخ زونجل "Ulich Zwingli"

هو سويسري الأصل قاد أول دعوة للإصلاح الديني خارج ألمانيا في مدن سويسرا، وبدأها في زيورخ ١٥١٨م، دون أن يتأثر بتعاليم لوثر في ذلك الوقت؛ فقد هاجم صكوك الغفران، كما هاجم استخدام البابا لرجال سويسرا في حروبه، ودعا إلى زواج القسس، والاعتماد على الإنجيل دون تعاليم الكنيسة، وخالف لوثر في تفسير العقائد، وفيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في الكنيسة، وذهب إلى أن القربان حفلة تذكارية لا غير، ورأي أن يعهد بإدارة الكنيسة إلى يد السطات التي تتولي شئون الدولة، كما فعل لوثر، ولكنه رأي أن هذه السلطات هي السلطات الجمهورية الثورية، ولذا فإنه كان يسود الكنيسة السويسرية النظام التام رغم خضوعها للسلطة الزمنية وعرض زونجل سبعة وستين بنداً يدافع عنها وتلخص عقيدته، ولهذا فأن زونجل اعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية لكل المسيحين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة منهم في الفصل في كل المسائل المتعلقة بالكنيسة والتعيين في الوظائف الكنسية وغيرها، على حين اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائماً الرئيس الأعلى للكنيسة، وقد قتل زونجل في الحرب التي دارت بين الكاثوليك والبروتستانت في ١١ أكتوبر ١٥٣١م وقد أثر ذلك على الحركة اللوثرية، التي لم تنتشر في سويسرا.

☒ جون كلفن "Jean Calvin":

انتقلت حركة الإصلاح الديني إلى فرنسا على يد "كلفن" الذي ولد في فرنسا ودرس القانون بها، وفي عام ١٥٣٤م خرج عن مذهب الكنيسة واتبع مذهب لوثر، واضطر إلى مغادرة فرنسا، لأن ملكها فرانسوا الأول أخذ يضطهد البروتستانت، وبعد قليل أقام في جنيف بسويسرا، ومنها أخذ اسمه وشهرته ينتشران في كل أوربا، وسُمِيَ اتباعه في فرنسا "الهيجونوت".

الفصل الخامس

الإصلاح الديني المضاد

لم يكن الإصلاح الديني في الواقع شيئاً جديداً بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، فهي قد عرفت أثناء القرون الوسطي دعوات كثيرة مماثلة انتهى بعضها باستحداث أصلاحات داخل الكنيسة تمت بمبادرات داخلية، ولكن الظاهرة الجديدة في الإصلاح الديني الذي حدث في بداية العصور الوسطى تكمن في أنه تم من خارج الكنيسة وبدون موافقتها وأدى إلى نتائج أهمها إنقسام أوربا الغربية دينياً "كاثوليكية وبروتسانتية"، وبذلك تحطمت الوحدة الروحية للمسيحية التي أثرت عليها الثورة البروتستانتية تأثيراً حاسماً، لم يكن الهدف من هذا الإصلاح هو إدخال تغيرات أساسية في العقيدة الكاثوليكية، وإنما المراد به تطهير الكنيسة، مما شابها من الفساد في نظامها وسلوك رجالها.

١-محاكم التفتيش :

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكي والتنكيل بهم إرهاباً لهم ولغيرهم ولإجبارهم على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية، وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطي واستخدمتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة، وأي فكر قد يظهر ولكنها ظهرت بشكل جديد وبسلطات واسعة حين طالبت إسبانيا إلى البابا في ١٤٧٧م إنشائها في بلادها لمحاكمة المسلمين واليهود هناك وفي ١٤٩٧م خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة وأصبحت تحت سيطرة

ملوك إسبانيا الكاثوليك وأثبتت فعاليتها في الإرهاب حتى أن كنيسة روما فكرت في إنشاء محكمة مماثلة في مدينة روما، وهكذا أصدر "البابا بول الثالث" ١٥٤٢م مرسوماً بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية منه ستة كرادلة ثم زيد عدد اعضائها إلى اثني عشر وأشرفت على إرسال المفتشين الكاثوليك إلى كل مكان.

وكان يتعين فهم محاكم التفتيش البابوية من وجهه النظر الوسيطة المعاصرة التي لم تعرف أي حرية للتعبير أو الفكر في المسائل التي تمس جوهر الإيمان، ومن ثم فإن أي انحراف عن الإيمان كما حدده البابا، لم يعتبر فقط ضد السلطان القائم الذي رغم تفرده باحتكار جميع المسائل المتصلة بالأسس الدينية للمجتمع، ولم تقتصر البابوية اهتمامها على التعبير عن مثل هذه المزاعم الإحتكارية في إنشاء محاكم التفتيش، بل عملت البابوية على التدخل والسيطرة على منجزات أعظم عقول فلسفية ولاهوتيه في أوربا.

وبالتالي فإن ظهور محاكم التفتيش التي تعتبر الوسائل السلبية التي لجأت إليها الكنيسة الكاثوليكية في روما في تنفيذ الحركة الإصلاحية وقد استخدمت هذه المحاكم لوقف انتشار البروتستانتية خاصة في إيطاليا وإسبانيا ومارست أعمالها بقسوة وسارت تصدر الأحكام الجماعية باحراق المتهمين أحياءً إضافة إلى التعذيب والسجن ومصادرة الممتلكات، فقد انتزع فرديناند وإيزابيلا من النبلاء الإسبانين حقوقهم ومن المدن الإسبانية استقلالها، واقتصرت حقوق المجالس الشعبية "الكورينز" على تحديد أسباب الشكاوي، ومن دون الخوض في

تفاصيلها أو العمل على إزالتها، والجدير بالذكر أن إيزابيلا هي التي وأوفدت كولمبس، وأنجبت أربع بنات، هن "ماري واليزابيث وجون وكاترين" وابن واحد توفي صغيراً، وكانت لشدة تدينها ترتدي أسفل ملابسها الملكية ملابس خشنة من الصوف وتقوم بزيارة الأديرة والكنائس وأعادت بناء الكثير منها.

كانت إيزابيلا تعاقب الرهبان الخارجين على تعاليم الدين بقسوة وتجبرهم على التعبد والصلاة، والبعد عن مباهج الحياة، كما كانت تصطحب بناتها وتُلبسهن الملابس الخشنة السوداء التي كانت تغطي أجسادهن الصغيرة من الرأس إلى أصابع أقدامهن، ولقد لقنتهن مبادئ القراءة والكتابة اللاتينية وطرق العزف والرقص على التامبورين والجيتار وغيرهما، وقد تزوجت إليزابيث من ملك البرتغال وعندما توفيت عوضاه عنها بماري وقد أدى هذا الزواج إلى تحالف البرتغال مع إسبانيا ضد المسلمين واليهود فاضطهدوا وطردوا من البرتغال على ماسبق أن اضطهدو وطردوا من إسبانيا.

وقد استطاعت محاكم التفتيش أن توقف توسع البروتستانتية في إيطاليا وإسبانيا وأثارت الرعب في نفوس بروتستانت ألمانيا وشمال أوروبا مما جعلهم أشد مقاومة لعودة الكاثوليكية أما في الأراضي فثاروا عليه وظلوا يحاربونه حتى ظفروا بالاستقلال.

٢-اليسوعيون (الجزويت):

يعتبر "اجناتيوس ليولا" هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذي سيكون لها دوراً كبيراً في المحافظة على الكاثوليكية وتدعيمها وجمع

حوله عدد من الزملاء وقرروا جميعاً أن "يحاربوا من أجل المسيح" كان ليولا من أصل إسباني ومن النبلاء وعاش في بلاط فرديناند وإيزابيلا ثم التحق بجيش شارك الخامس، وحارب ضد قوات فرانسوا الأول، وأصابه جرح أجبره على أن يترك حياة الجندية فاتجه إلى الدين، ودرس حياة الفرنسيين، ودرس اللاهوت حتى حصل على درجة الدكتوراه من باريس عام ١٥٣٤م وكونوا رابطة بينهم، وعزموا على السفر والمعيشة في بيت المقدس لنشر الدين المسيحي في بلاد الشرق الإسلامي[٥٩]، وأنشأوا حزباً باسم "حزب المسيح" جعل قوامه النظام والطاعة والغيرة على المبدأ والدفاع على البابوية وسلطتها، وكانت الوسائل التي اعتمد عليها تخلص في الدعوة بالكفاية والخطابة والتعليم وليست المعتقدات الدينية الكاثوليكية المقررة، وقد نجح الجزويت في عملهم نجاحاً كبيراً وساعدوا على رد تيار البروتستانتية في كثير البلاد غير أن تجردهم من أي فكرة وطنية وانصرافهم إلى غرض ديني هو خدمة الكنيسة والبابوية وضعهم موضع الشك إزاء الحوكومات الكاثوليكية فتعصروا لنقمتها وسخطها، وانتشر اليسوعيون ودعائهم في ألمانيا والنمسا وإسبانيا وفرنسا، وفي كل مكان في أوربا وساهم اليسوعيون في خدمة الكاثوليكية وأصبحوا شبه تنظيم عسكري.

ويرجع الفضل إلى اليسوعيين في إصابة المذاهب البروتستانتيتة بكنيسة في فرنسا وألمانيا وفي هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن في انجلترا واسكتلندا، وكذلك في استئصال البروتستانتية من إيطاليا وإسبانيا، أما بولندا فقد نجحوا نجاحاً فائقاً وعلى حساب المذهب

الأرثوذكسي ودعموا هناك المذهب الكاثوليكي، حتى أصبحت بولندا إقليمياً كاثوليكياً بين ألمانيا البروتستانتية في الغرب، وروسيا الأرثوذكسية في الشرق ولم تقتصر جهودهم على أوربا فحسب، لقد عملوا على نشر الكاثوليكية فيما وراء البحار وفي العالم الجديد والشرق الأقصي.

٣- مجلس ترنت :

وهو مجلس كنسي اجتمع بأمر الإمبراطور لإيجاد قاعدة التفاهم والوفاق مع اللوثرين، وظل المجلس ينعقد تارة ويتأجل أخرى، حتى بلغت جلساته خمس وعشرين جلسة كان آخرها في ديسمبر ١٥٦٣م، ولقد انقسمت قراراته التي أصدرها أثناء الفترة (١٥٤٥-١٥٦٣)م إلى قسمين؛ أحدهما: متعلق بنظام الكنيسة؛ حيث تقرر استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة، وحرم زواج القساوسة، ومنع أن يجتمع عدد من الأسقفيات في يد شخص واحد، وحدد سن من يشغل منصب الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة، كذلك حرم تداول الكتب البروتستانتية في الممالك الكاثوليكية، وفتح المدارس لتعليم رجال لدين واجباتهم وتثقيفهم ورفع مستواهم الديني والخلقي والفكري، أما القسم الثاني فهو متعلق بالعقائد؛ حيث تقرر أن تكون الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس هي الترجمة الوحيدة المعتمدة، وأن تبقي أسرار الكنيسة سبعة لا سرين كما أوردها البروتستانت، وأن المرجع في القضايا الإيمان والعقيدة ليس الكتاب المقدس وحده، وإنما لكتاب المقدس والتقاليد الكنيسة واجتهادات الكنيسة، أملاً في أن تؤدي هذه الرسائل إلى تدعيم مركز الكاثوليكية

وشحذ سلاحها للصراع القائم بينها وبين المذاهب الأخرى، وبذلك حدد المجلس في قرارته موقف الكنيسة بوضوح من القضايا المطروحة.

٤-صلح أوجزبرج ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥م :

انعقد المجلس الإمبراطوري في مدينة أوجزبرج لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستانت، وهو ماعرف باسم "صلح أوجزبرج"، والذي قرر فرض مذهب ديني واحد على جميع المقاطعات الألمانية، وعدم إستخدام العنف ضد الولايات الكاثوليكية، وأن من حق كل فرد يعتنق مذهباً مخالفاً لمذهب الولاية التي يقطنها أن يهاجر إلى ولاية أخرى تدين بالمذهب الذي يعتنقه، وله الحق في أن يأخذ معه أمواله، ويحق له أن يبيبع أمتعته قبل رحيله وألا يضار في شرفه، وأحكام هذا الصلح تسري على الكاثوليك واللوثرين، كما قرر الصلح أن أملاك الكنيسة الكائنة في المقاطعات التي تحولت إلى اللوثريين قبل ١٥٥٢م تبقي كما هي، وأما أملاك الكنيسة التي أخذت منها بعد هذا التاريخ، فتعود إليها وأعطي للأساقفة حق اختيار المذهب الديني الذي يرغبون في اعتناقه، بشرط أن كل أسقف يعتنق المذهب البروتستانتي عليه أن يترك أسقفية ويفقد وظائفه الدينية، تصبح ممتلكاته تابعة لروما، والواقع أن صلح أوجزبرج كان محاولة لوضع حد للمشكلة التي واجهت ألمانيا في مطلع العصر الحديث، ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها أن تعيش طويلاً، حيث نشبت المعارك الدينية واشتركت فيها كل من ألمانيا والدنمارك والسويد وإنجلترا بطريق غير مباشر وهي الحروب التي عرفت بحرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨)م والتي انتهت بصلح وستفاليا .

الفصل السادس

الثورة الفرنسية

✶ الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية:

جاءت الثورة لأن الملكية عجزت عن حل مشكلة الامتيازات، فقد كان الأشراف يستأثرون بأعلى مناصب الدولة، مدنية كانت أو عسكرية، ومع ذلك كانوا يعفون من أعباء الضرائب إلا القليل منها، كما كانت لهم حقوق وامتيازات من بقايا النظام الإقطاعي؛ مثل حق الصيد في مزارع الأهالي وحق القضاء بين المزارعين، ولهم نصاب معين من الغلال، أو عدد معين من الغنم والطيور كل عام، وكانوا يرغمون المزارعين على أن يطحنوا غلالهم في طاحون الشريف، وأن يعصروا عنبهم في معصراته، ويدفعون الأجر الذي يفرض عليهم وهم صاغرين، ولم تكن من القوة بحيث تنبذ بقايا النظام الإقطاعي الذي كان في فرنسا، كما كان في معظم ممالك أوربا الأخرى، ثقيل الوطأة على الأهالي، ولقد كان ثمة معضلة أخرى ذات صبغة اقتصادية حارت حكومات النظام القديم في علاجها، ذلك أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة مضمونة، فمع كل ثروة فرنسا الزراعية، وترف طبقتها العليا، كانت بعض طبقات الأمة عرضة بين آن وآخر لفتك المجاعات وأهوالها[١].

وكانت الإدارة المالية تتميز بدرجة من الفوضي بلغت حد عدم التمكن من وصفها إلا على وجه التقريب، فقدرت التنبؤات التي عملت في مارس ١٧٨٨م، وهي أولي وآخر ميزانيات النظام القديم،

المصروفات بـ ٦٢٩ مليون والإيرادات بـ ٥٠٣ مليون، أي مع عجز يصل إلى ٢٦٩ مليون أو إلى ٢٠% من الميزانية، وأرجع المعاصرون مسئولية ذلك إلى اسراف البلاط ومكاسب رجال المال، وكان من الممكن الاقتصاد، ولكن إدارة الدين طالبت بمبلغ ٣١٨ مليون، أي مايزيد على نصف المصروفات إلى هذا الحد إلا بإعلان الإفلاس، فكانت الضرائب، وكانت هناك بعض الأقاليم تدفع أقل من غيرها، وكان البرجوازيون يدفعون أقل من الفلاحين والنبلاء ورجال الدين أقل من ذلك أيضاً، وكان من الممكن أن تحل الأزمة بسهولة، فكانت المساواة في دفع الضرائب تكفي لذلك(٢).

ومن أجل الإصلاح في فرنسا اقترح "ترجو إلغاء نقابات طرائف العمال، واطلاق تجارة الحنطة من كل قيد، وكانت أكبر العقول في فرنسا وقتئذ كانت تؤيده فهو أعظم وزراء فرنسا ، ولكن برلمان باريس كان أيضاً محبوبا من الشعب، فقد عده الحائل الفعال الوحيد دون طغيان العرش، ولذا عزل ترجو بعد مكثه في الوزراة ثلاثة عشر شهراً لم ينجز فيها شيئا، وخلفه في الوزارة "نكر"، وهو بروتستانتي جمهوري من أهل جنيف، واشتغل أولاً في أحد المصارف، وقد ظفر نكر بحب الجمهور إبان اشتراك فرنسا في حرب الإستقلال الأمريكي، بدفعه نفقات تلك الحرب بالقروض، ولكنه فقد ذلك الحب حالماً شرع في إنشاء مجالس محلية، تحل مندوب الملك في الأقاليم في تأدية واجباتهم الإدارية، وعزل نكر من منصبه سنة ١٧٨١م.

ومن أجل الإصلاح أيضاً قدم "كالون" مشروعاً يأخذ ضريبة مالية على عقار من الأرض "ضريبة العقار"، فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة عظيمة من الغضب، وطالبوا بدعوة "مجلس الطبقات" الذي لم يجتمع منذ عام ١٦١٤م، وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث "النبلاء، ورجال الدين، العامة، وقدم كالون مذكرة إلى الملك لويس السادس عشر في أغسطس ١٦٧٦م، قصر على ضرورة إصلاح الدولة، كما اقترح كالون تعميم ضريبة الملح، وكذلك احتكار الطباق، وأن يبدلوا ضريبة الرؤوس وضريبة الواحد من عشرين بإعانة إقليمية يدفعها كل الملاك العقاريين، ضريبة العقار السابق ذكرها بلا إستثناء.

وكانت الأزمة الاقتصادية من الأسباب التي عجلت بالثورة، فمنذ عام ١٧٧٨م كان الإنتاج قد اعترضته مشاكل نشأت من المشكلات الزراعية، وفي عام ١٧٨٥م مرت البلاد بموسم الجفاف والقحط في أنحاء البلاد، وانخفض أنتاج الحبوب إلى أدني مستوي عرفته فرنسا، وأخذت أسعار الخبز في الإرتفاع المطرد[٦]، وكانت الدول بشكل عام؛ ومنها فرنسا تمارس سياسة تجارية، وتمارس منع الإستيراد، وتفرض الضرائب المرتفعة، على الواردات وكانت هناك قوانين الملاحة، واحتكار المستعمرات، الأمر الذي ساعد على تكدس رؤوس الأموال والاحتفاظ بها داخل البلاد، وبخاصة فيما يتعلق بمكاسب النقل، وإنشاء الورش الصناعية.

وساعد الأمراء وحاشيتهم صناعة الكماليات التي كانت لازمة للطبقات الحاكمة، ولكن المجهودات التي بذلت من أجل الإنشاءات البحرية والنسيج والصباغة، ونتيجة لطلبات القوات المسلحة، وعمليات منح الضرائب المباشرة لبعض الأفراد عن طريق الإلتزام، وبمنح الموردين عمليات القيام ببعض الخدمات العامة، وحتى تزود الجنوب بمرتباتهم، ساعدت كلها على ازدهار الخدمات العامة، وحتى تزود الجنود بمرتباتهم، ساعدت كلها علي ازدهار متزايد لرجال المال والمصارف.

وكان للحالة الاجتماعية في فرنسا دور كبير في التعجيل بالثورة، فرجال الدين يمثلون أولي الطبقات الاجتماعية الموجودة، وبدأ عهد جديد من الإضطراب الديني في فرنسا في نوفمبر ١٧٨٩م، عندما صودرت أراضي الكنيسة لتسديد الديون، واقترن بهذا القرار إعلان "الجمعية الوطنية" تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشعائر العامة ومرتبات الأكليروس وغوث الفقراء، وأدى المشروع وما تضمنه من خفض لدخل رجال الدين إلى إيغار صدورهم، وزاد من سوء الحالة القرار الصادر في ديسمبر بإعلان بيع ما قيمته ٤٠٠ مليون جنيه من الممتلكات المنزوعة من الكنيسة، وزادت الحدة عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة في الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة التي تضمنت مبادئ الدستور المدني لرجال الدين، وأعلن اليعقوبيون في الأقاليم عن تأييدهم للدستور المدني لرجال الدين[٨].

واحتفظت الكنيسة في فرنسا بثراوتها وامتيازاتها، ورجال الدين كانوا يمثلون أقلية صغيرة، وقدر عددهم في فرنسا بما يقرب من ١٣٠ ألف شخص، موزعين مناصفة بين إقامة الشعائر وبين الجماعات الدينية، ولنفوذ رجال الدين كان النبلاء يعينون أبنائهم في الأسقفيات والأبرشيات والكنائس، وشكا صغار رجال الدين وجمهور المسيحيين من عدم صرف إيرادات الكنيسة في أوجهها، وكان رجال الدين يكونون " جماعة ولا يكونون " طبقة "، وجاءت الثورة الفرنسية لتهز أركان الكنيسة أكثر وأكثر بدعوتها للحرية المطلقة، فهي لم تقم فقط ضد نظم الحكم القديمة، وإنما ضد كل ما يحد من الحرية أو يقيدها كالتعليم الدينية، وكانت هذه بمثابة دعوة إلى الفوضوية من وجهة نظر الكنيسة ثم زاد نابليون الطين بلة، بخلعه "البابا بيوس السادس" من منصبه ونفيه إلى فالنسيا حتى وفاته هناك عام ١٧٩٩م، ثم وجه نابليون ضربته التالية حين تجاهل وجود "البابا بيوس السابع" أثناء احتفالات تتويجه في كنيسة نوتارتام، حيث قام بوضع التاج لنفسه وللامبراطورة أوجيني.

وكان البنلاء يكون طبقة لها امتيازاتها واحتفظ بالتقاليد الخاصة بهم، وكان النبل وراثياً، يحصلون عليه بالمولد، ولذلك كانوا يحاولون الأبقاء على دمائهم نقية، وقد أخذ الملك في بيع المناصب للنبلاء الرداء بطريقة وراثية أو شخصية، وظل من بين سلطات السيد جزء من ممارسة القضاء والإشراف على الأمن في القري وبعض الإحتكارات مثل الصيد وبعض الضرائب والسخرة وخدمة الأرض، واحتفظ النبلاء بمزارع

خاصة بهم، وكانت الإرستقراطية تتنافس مع السلطة الملكية، ومع الطبقة البروجوازية في نفس الوقت، وكانت تشعر بضغائن عميقة تجاه السلطة الأولي التي كانت قد أخضعتها، وبشعور بالإنفصال والترفع عن الثانية التي كان نموها يهددها، وكانت تمثل أقلية صغيرة للغاية وقدر عددها في فرنسا بنحو ١١٠ ألف نبيل.

وقد أسفر الضغط الاجتماعي المتزايد عن سيل من الإتهام والقضايا، وأعمل العنف من جانب الفلاحين، فتفاقمت بذلك التوترات الاجتماعية في الريف، وكان النبلاء يعفون من ضريبة "التاي" وهي الضريبة العقارية المفروضة على الأراضي والمسكن، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها، وضريبة الرؤوس وضريبة الدخل ، وبذلك تعدي سخط الفلاحين النبلاء إلى النظام نفسه، نظام العلاقة الإنتاجية الذي يسند مصالح هؤلاء النبلاء.

أما الفلاحون فقد استمر نظام عبودية الأرض في المناطق الغربية من القارة، وكان يشتمل على إبقاء حقوق السادة، وفي فرنسا حرر لويس السادس عشر عبيد الأرض، فأصبح ثلث الأراضي تقريباً في أيدي الفلاحين، وأصبح صاحب الحيازة الحرة، يمارسها ويورثها ويتصرف فيها كما يرغب، ولكن بالنسبة للبورجوازيين وسكان المدن وكذلك البنلاء، ظل الفلاح في كل مكان هو الكائن الجاهل الخشن الذي كان مصيره وطبقا للتقاليد هو خدمة الطبقات الحاكمة وتمويل الخزانات الملكية وإطعام سكان المدن، وكان كل سكان القرية يتحملون سلطة السيد والتزاماته الشخصية، وكانت الحيازة تؤدي إيرادات حقيقية، مثل

الضريبة الخاصة بالملكية والإيجار ونسبة من المحصول، وضريبة خاصة بالنقل من أرض إلى أرض أخري والخاصة بالبيع.

علاوة على ذلك كان رجال الدين يجمعون ضريبة العشور، والتي كانوا يعطونها في بعض الحالات لأحد المدنيين بطريق الإلتزام، وكانت هذه أكثر ثقلاً من حقوق السادة وأصناف الملك إلى ذلك الضرائب الخاصة به وبالدولة، وكان الريف يدفع تقريباً كل شئ، ولم يطلبوا من النبلاء إلا نسبة بسيطة من ضريبة الرؤوس وضريبة الواحد من العشرين، وكانوا يعفون البورجوازيين، واقتصر رجال الدين على تقديمهم الهبات بدون إلزام، ومع ذلك لم يكن هناك شيئاً يثير الفلاح أكثر من ضريبة الملح والمعونات التي كان يجبر على تقديمها وبإجباره على تموين الأسواق، فشعر أنه يعاملونه معاملة الدواب.

أما بالنسبة للأوضاع السياسية؛ فقد كانت الملكية منذ عهد لويس عشر قد أصبحت مطلقة ومركزية وبيروقراطية، والحقيقة أن رد الفعل الإرستقراطي كان يميز القرن الثامن عشر، مثله في ذلك مثل نمو البرجوازية، ولم تفكر في استخدام السلاح، ولكنها استخدمت وسائل برجوازية؛ مثل منافسة البلاط الملكي والاتجاه إلى الرأي العام، لعرقلة سلطة الملك والحد منها، وكان نبلاء السيف، الذين كانوا غالباً من أصل عادى رغم ادعاءاتهم، لم يبقوا في الصفوف الخفية، والتف حولهم الموظفون، أما السادة المتحالفين من الإساقفة، فإنهم سيطروا على المجالس الإقليمية، وتدريجياً تخلي خلفاء لويس الرابع عشر لهم عن الوظائف العليا في السلطة.

وأصبحت السلطة الملكية مهددة، بعد أن أصبحت ضعيفة، بأن تري رد فعل النبلاء يزداد جرأة ضدها، وكان من الممكن أن تؤيد البرجوازية طبقة النبلاء، وانتهى الأمر بنبلاء السيف، ونبلاء الرداء، والموظفين الذين كانوا يحافظون على تقاليدهم المهنية، ورجال القانون والفلاسفة الذين كانوا يستشهدون بالحق الطبيعي، ويصمون على التفكير العقلي، انتهى الأمر بهم جميعا إلى أن يحدوا بالقانون من سلطات الأمير، وأن يضمنوا حرية الفرد ضد التحكم، وكان كبار الملاك العقاريين والبورجوازيون والرأسماليون ينظرون بعطف إلى الحرية الاقتصادية(١٤).

وكان برلمان باريس قد وضع الضمانات الكافية لينعقد مجلس طبقات الأمة على النحو الذي يتفق مع مصلحة الطبقة الإقطاعية، فأضاف عن تسجيل المرسوم بدعوة مجلس طبقات الأمة هذه العبارة؛ طبقاً للنظام الذي اتبع في عام ١٦١٤م" ومعني ذلك أن يكون لكل طبقة من الطبقات الثلاث: البنلاء ، ورجال الدين والعامة، عدد متساوٍ من الممثلين، وتصدت كل طبقة على حدة، ويكون لكل منها حق نقض قرارات الطبقتين الإقطاعية والملكية، وابتدائها بين الطبقة الإقطاعية والطبقة البرجوازية فقد بادرت الطبقة البرجوازية، إلى قبول التحدي في باريس، ومنها سرت حملتها إلى الأقاليم في شتاء (١٧٨٨-١٧٨٩)م.

أما الأوضاع الفكرية؛ فقد شهد القرن الثامن عشر طائفة من الكتاب الذين زعزعوا دعائم النظام القديم، ونقصد بها دعائم الحكم

المطلق أي عدم المساواة في أمور المجتمع، وعدم المساواة والتسامح في الشئون الدينية، ونظام الحماية في ميدان الاقتصاد، وظهر في فرنسا قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة، وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، "مونتسكيو" بوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت الفحص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه "روح القوانين"، وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية(١٧).

مونتسيكو فيلسوف فرنسي اشتهر بكتابه "روح القوانين" باريس ١٧٤٨م، ونادى فيه بفكرة خضوع العالم الاجتماعي للقوانين، شأنه في ذلك شأن العالم الطبيعي، وفي هذا الكتاب أيضاً جمع تاريخ أنظمة الحكومات وحدد أنواعها ومبادئ كل منها وما تحويه من مزايا وعيوب، وضمنه نظريته الشهيرة في وجوب انفصال الحكومة التشريعية والتنفيذية والقضائية بعضها عن بعض لضمان الحرية والعدل، واشترك الملك في الإرستقراطية والعامة في حكم البلاد على مثال نظام الحكم الانجليزي الذي كان يعتبره أرقي نظم الحكم(١٨).

وقد شغل نفسه بالتيارات الاجتماعية، ومع ذلك فإنه على الرغم من أن معالجته للتاريخ كانت واقعية، فقد فأنه من حيث النواحي الفيزيائية والاقتصادية والسياسية والدينية، خاصة وقد تجاهل الأخبار التاريخية وقد ركز همه على تأكيد التقاليد، فكانت نتيجة ذلك أنه قلل من شأن الدور الذي يلعبه العقل، ومن ثم راح " فولتير يسخر منه،

وبظهور الاتجاه الجديد من الماضي وهو الاتجاه الذي برز في عهد الثورة الفرنسية، استبعد عمل مونتسكيو وطرح به جانباً.

وكان فولتير يؤمن بالله، ولكنه يرفض كل فكرة تقول بأن التاريخ ينطوي على مناشطة تعالى على الشاكلة التي يتضمنها مصطلح "العناية الخاصة"، ومن المحقق أنه لم ينظر إلى التاريخ من وجهة نظر مبادئ علم طبيعة المسيح وشخصيته، أن هي إلا صيغ خرافية للدين الطبيعي، وللاعتقاد التأليهي وللتقوي، وقد منح الله الناس "مبدأ العقل الشامل وفلولتير من كبار فلاسفة العالم، عرف بصراحة رأيه وشجاعته في ابداء ارائه فقد دخل البلاط الفرنسي وكشف عن الحياة الماجنة بداخله، ولم يرض عن تلك الأوضاع وأخذ ينقد تصرفات الحكام.

قد قاسي فولتير كثيرا ازاء شجاعته لذا صب جام غضبه على الظلم والطغيان في الحكم، وسخر قلمه لتحرير الإنسان والإخاء ونادى بإلغاء الامتيازات والطبقات بين الناس، فأثارت كتاباته حماس الجماهير في فرنسا وفي خارجها، وأصبحت بلدته "فرناي" عاصمة أوربا الأدبية وكان من أثر ذلك قيام الثورة وما تبعها من ثورات ضد الطغيان في سائر بلاد أوربا غرباً وشرقاً[٢٠]، وذلك لأن فولتير كان قد عرف انجلترا معرفة جيدة بعد إقامته فيها خلال منفاه الباكر، وقارنها بروما وبفرنسا ووجدها نموذج للحرية الدينية والسياسية، والعلم الإنجليزي أسمي من العلم الفرنسي، وامتدح الانجليز لأنهم مجدوا التعليم والثقافة أكثر من كل الشعوب الأخرى[٢١].

ساعد انتشار الفلسفة وتقدمها على هدم الأفكار الشعبية التي آمنت بها الشعوب زمناً طويلاً، فقد نادت الفلسفة بضرورة اخضاع جميع الأفكار للعقل الخاص وحده، وبهذا اختفت الخرافات والأفكار الشعبية المتوارثة من عقول أفراد الشعب بعد اختفائها من عقول الفلاسفة، وتكونت في أوروبا جمعيات وظيفتها محاربة الخرافات والأفكار الشعبية في الكنائس والمدارس والحكومات(٢٢).

وتألفت جماعة من أذكياء الكتاب هم "الموسوعيون" ومعظمهم ذوو أرواح ثارة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيون الممتازة، ونهضت تحت قيادة "ديدروه" لوضع الخطط لعام جديد عام ١٧٦٦م، بوساطة مجموعة من المؤلفات، ويقول "ماليه" أن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرئب وفساد العدالة، والدمار الذي تجره الحروب، وفيما كانوا يحملون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجهم من عطف على دولة الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العلم تحويلاً .

قامت إلى جانب الموسوعيين جماعة "الاقتصاديين" أو "الفيزيوقراطيين" الذي كانوا يقومون بأبحاث جريئة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها، وقد شهر مؤلف "قانون الطبيعة" بنظام الملكية الخاصة الأخلاقية، واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع، وكان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة، مدرسة المفكرين الجامعيين أو الحشديين في القرن التاسع عشر، وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الإشتراكيين.

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين من تلاميذهم قدراً من التفكير الشديد العميق، وثمة زعيم أقرب إلى قلوب الناس هو "جان جاك روسو وهو روح منبوذة، لما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفي للطبيعة والحرية البشرية مثلاً أعلى[٢٣]، وفي معارضة من روسو للمبدأ القائل بفساد الطبيعة البشرية، كما تعلمه النظرية المسيحية السائدة حول التاريخ، أخذ ينازع بأن الإنسان يولد حراً طيباً بطبعه، وأن التنظيم الاجتماعي قد وضع الأغلال في يديه، وأن قدرة الإنسان على حرية الاختيار وقدرته على حيوانات، فإن هو كان عليه أن يحتفظ بمكانته الحقة كإنسان، فلابد له من الاحتفاظ بتلك الحرية[٢٤].

وكان لروسو أثر كبير في قيام الثورة الفرنسية ولم يحاول تعديل نظام الحكم الإستبدادى في فرنسا فحسب، بل حدد واجبات الحكومات في كل مكان فقد بين في كتابه الشهيرل "العقد الاجتماعي" أن الإنسان خلق حراً ومساوياً لغيره في الحقوق، ولضمان هذه الحرية والمساواة نظم الأفراد أنفسهم، وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم لأنها تستمد السلطة منهم، فإذا أساءت إحداها استعمار هذه السلطة، أو اخلت بتلك الحقوق وجب عزلها، وإقامة حكومة أخرى مكانها، وكان لهذا الكتاب تأثير خطير في نفوس الفرنسيين حتى لقب بحق "انجيل الثورة" وذلك لما امتاز به من قوة العاطفة وسلامة العبارة[٢٥]، كما دعا في هذا الكتاب أيضاً إلى دين جديد من الوطنية، فبدلاً من المسيحية التي تعادى الروح الاجتماعية، ينبغي بث روح دينية مدنية تطبع في نفوس

الأفراد الولاء للدولة وواجبات المواطنة، ورغم رغبته في السلام والتسامح بين الأمم، إلا أنه مهد لعصر القومية الذي بدء بالثورة الفرنسية[٢٦]. بهذه الفلسفات التي أثرت على الحالة العقلية للشعب الفرنسي مع استمرار استبداد الحكومة الفرنسية، سواء بالنسبة للامتيازات التي كانت للإشراف والنبلاء ورجال الدين، أو أكثر الضرائب التي كانت تفرض على كل كاهل العامة الفقيرة، أدى إلى ضرورة قيام الثورة الفرنسية.

الفصل السابع

فرنسا والملكية المطلقة "عصر التفوق الفرنسي"

يعتبر هنري الرابع (١٥٨٩-١٦١٠)م أول ملك من ملوك أسرة البوربون بدأ عمله بتعطيل مجلس الأمة الذي كان مسرح الخلاف والشقاق، وتحدي البرلمانات واجراءاتها في نظمه وأحكامه، وعمل على تنظيم المالية والشئون الاقتصادية، وإنشاء جيش استردت به فرنسا مكانتها بين الدول، وارتفعت فرنسا بفضل سياسته فوق دول وملوك أوربا، ورأي أن خير طريق لحسم النزاع القائم في فرنسا ارتداه عن المذهب البروتستانتي وتحوله إلى الكاثوليكية؛ فاكتسب حب الشعب الفرنسي، واعتلي عرش فرنسا ١٥٩٤م، كما أصدر مرسوم نانت لحسم المشاكل الدينية في فرنسا ١٥٩٨م، وبمقتضي هذا المرسوم صار للبروتستانت :-

١-حرية العبادة في أي بلد عدا باريس وأقاليم خاصة.

٢-تساوي البروتستانت والكاثوليك أمام القانون وتكوين محاكم خاصة لمقاضاة الهيجونوت مكونة من الكاثوليك والهيجونوت، منح الهيجونوت بعض بلدان يكون لهم تحصينها أهمها "لاروشل، سمومير، مونبليه" وذلك ضماناً لحريتهم وتأميناً لهم، وبذلك أصبح الهيجونوت طائفة متنقلة داخل الدولة الفرنسية فصار لهم جيش وحصون يلوذون بها، وكان ذلك يتعارض مع آراء الوزراء العظام كما كان سبباً في تجدد الحرب الدينية أيام ريشيلو.

عندما قويت فرنسا داخلياً وضع الملك هنري مشروعا لمناوأة أسرة هابسبورج في أوربا، وأعد لذلك جيشاً قوياً وبدأ تنفيذ مشروعه، ولكنه قُتِلَ فى عام ١٦١٠م، وأصبح ابنه "لويس الثالث عشر" (١٦١٠-١٦٤٣)م صاحب العرش، وكان يبلغ من العمر تسع سنوات، ولذا وضع تحت وصاية والدته ماري دي مدسيس التي واجهت الموقف بكل حزم، خاصة وأن زوجها كان يطلعها قبل وفاته على شئون الدولة، واستعانت بوزير إيطإلى ليسهل تيسير الأمور، فوقف ضده أبناء عم الملك الصغير وبخاصة دوق كونديه، ومع ذلك عملت الوصية على تدعيم السلطة المطلقة للمجالس على العرش، وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة في باريس ١٦١٤م، ظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة حول مسألة اعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال الطبقة الثالثة، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الإلتماسات، تقرر وقف اجتماعات مجلس طبقات الأمة، بشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة، وسيظل مجلس طبقات معطلاً بدون اجتماع حتى نشوب الثورة الفرنسية.

عملت ماري على ربط الأسرة المالكة في فرنسا بالأسرة المالكة في إسبانيا رغم ماكان بين الأسرتين من عداء، ورغم معارضة الرأي العام الفرنسي، وفي ١٦١٢م تم الاتفاق على زواج "لويس الثالث عشر" بـ آن النمساوية بنت فيليب الثاني ملك إسبانيا، وفي ١٦٢٤م تولي لويس زمام الأمور وأتم زواجه، ولكن الأمور لم تتحسن بتقليده أمور الحكم، وبقي التنازع على السلطة فيما بين الأشراف، فتشجع

الهيوجونوت وحاولوا ١٦٢٠م تكوين جمهورية خاصة بهم في جنوب فرنسا، وعمل لويس على القضاء عليهم وعقد صلح منبليه ١٦٢٢م؛ حيث حرم على الهيجونوت الاجتماعات السياسية، ولم يتعرض لحقوقهم الدينية، وقصر حصونهم على مدينتي "لاروشل، منتوبان.

في عام ١٦٢٤م "ريشيلو" منصب وزير الملك، ويتولي ريشيلو زمام الأمور حدث تغير تام وبدأت فرنسا صفحة جديدة من صفحات تاريخها، فقد عمل ريشيلو ذلك النبيل الفرنسي على تحقيق هدفين هما:

الأول: اتحاد الأمة وزيادة نفوذ الملك داخل البلاد، وتوطيد سلطانه بالقضاء على كل منافسيه من الأشراف والهيجونوت والمجالس الوطنية على السواء، بوضع نظرية متكاملة في الحكم والإدارة، ووضع خط عام للسياسة الفرنسية لا يقوم على العقوبة والإرتجال.

الثاني: العمل على تفوق فرنسا في أوروبا، وذلك بقهر الهابسبورج في ألمانيا وإسبانيا، وجعل الملكية مطلقة في الداخل ومهيمنة في الخارج.

ونتيجة لسياسته صارت فرنسا ذات وحدة وطنية، وأصبح ملكها ذا مركز متفوق في أوربا، كما اهتم بالاقتصاد حيث رأي أن قوة فرنسا الاقتصادية مكملة لقوتها السياسية والعسكرية، وضمن اطار الحرية الاقتصادية مما جعله أحد رواد "المذهب المركنتيلي" في أوربا، فشجع على الاشتغال بالعمل التجاري كما طور أسطول فرنسا التجاري .

☒ لويس الرابع عشر

كان حسن حظ فرنسا أن خلف ريشيلو بعد موت مزران الذي أوصي هو بأن يخلفه في منصبه، وكان مساعداً له في آخر أيامه، فكان مزران نعم الخلف؛ لأنه واصل السياسة التي رسمها ريشيلو إلى أن بلغ ماكان يأمله فقد تولي لويس الرابع عشر الحكم (١٦٤٣-١٧١٥)م وهو دون الخامسة فصارت أمه "آن النمساوية" وصية عليه، وساعدها مزران على جمع السلطة في يدها فأعطته ثقتها وتأييدها.

وكان مزران إيطالى الجنسية، وحصل على الجنسية الفرنسية عام ١٦٣٩م، بعد أن كان من رجال البابا، وكان يختلف عن ريشيليو في كل شئ؛ فبينما كان ريشليو جندياً ويسير وراءه حرس كبير وله حاشية ملكية، كان مزران بسيطاً متواضعاً، يحادث الجميع ويجالسهم ولم يكن له من الحياة العسكرية أي شئ، ولكنه كان عبقرياً في دبلوماسيته وبدرجة تفوق ريشيليو، أما من ناحية الإدارة فكان لا يصل إلى مستوي ريشيليو ولويس الثالث عشر، وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له، فالكبراء يحاولون استعادة سلطتهم بعد أن كان ريشيليو قد احكم قبضته عليهم، وحاولت التخلص من مزران حتى عن طريق الاغتيال، وكان الفلاحون – وهم الغالبية العظمي للشعب – يعيشون في ظروف قاسية نتيجة للضرائب، وحاول مزران أن يصلح المالية، كما حاول فرض ضرائب جديدة، وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ومجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته.

ولما قام الأشراف بالحرب الأهلية المعروفة بحرب الفورند (١٦٤٨-١٦٥٢)م، والتي بدأت بانشقاق في البرلمان، ثم الأشراف

رغبة منهم في استعادة امتيازاتهم الأولي، وتمكن مزران بمساعدة توزن من التغلب على الأشراف ١٦٥١م، ودخل لويس الرابع عشر باريس ١٦٥٣م، وقضي نهائياً على حركة الفورند، وحاول مزران خلال السنوات الأخيرة من حكمه للوصول إلى صلح مع إسبانيا، وتم له ذلك في عام ١٦٥٩م، وبانتهاء الحركة تفوق الملك وتنافس الأشراف في خدمته، والإذعان لأوامره، وفي ١٦٦١م مات مزران، فلم يتخذ الملك رئيساً للوزراء بديلا عنه، واحتفظ بهذا المنصب لنفسه، وظل آخر أيامه الحاكم المطلق في فرنسا، وإن كانت سياسته قد نفرت منه سكان من فرنسا، وبخاصة أهل باريس وقد أوصي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة الملك الشاب بأن يحكم فرنسا حكماً مباشراً دون أن يتخذ له وزيراً أول وأصبح ملكاً مطلقاً.

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فاعلية بالحكم، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة إلى رئيس الوزراء في اليوم الذي تلا وفاة مزران، وكان الملك الفتي قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة ١٦٤٩م، وعندما كان في الحادية عشر من عمره وكان أول قرار سياسي أصدرره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال "دي ريتز " في ١٦٥٢م، وبين (١٦٥٣-١٦٥٥)م، كان مزران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يومياً على الأقل لتصريف أمور الدولة، وخشي أنصار الفروند من استغلال مزران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتي فليلقنه السياسة في صورة ضارة، والحق أن لويس قد طبق المبادئ التي صاغها مزران، وهو على فراش الموت والتي أملاها

لويس على أحد سكرتارية في باريس ١٦٦١م، ومن ثم يعد لويس الرابع عشر تلميذاً لمزران في السياسة، ونصح مزران لويس باحترام سيادة المجلس السيادية.

واهتم لويس الرابع عشر بشئون الإدارة والسياسة الداخلية، وكان أغلب موظفيه من أعضاء الطبقة الوسطي الذين كانوا يساندون سلطة الملك المطلقة، وقد كانت الفترة الأولي من حكمه فترة اصلاح على يد وزرائه وخاصة وزير المالية "كولبير" الذي ساهم في تحويل الاقتصاد والفرنسي من اقتصاد اقطاعي زراعي إلى اقتصاد رأسمالى، وذلك من خلال تشجيعه للتجارة والصناعة، ومن ناحية أخرى آمن لويس الرابع عشر بأن الوحدة السياسية لفرنسا لا يمكن أن تتحقق بدون قيام الوحدة الدينية، ولهذا كان يأمل عودة البروتستانت إلى الكنيسة الكاثوليكية إذا استخدم ضدهم العنف وأبعدهم عن مناصب الدولة العليا، وهكذا أمام الحاح رجال الدين الكاثوليك تتابعت حملات الاضطهاد ضد البروتستانت والمذاهب الدينية الأخرى في فرنسا وهاجرت أعداد كبيرة منهم عبر الحدود.

وفي كندا كمستعمرة فرنسية في ذلك الوقت رفض الفرنسيين هناك قبول المهاجرين من غير الكاثوليك، حتى ولو كانوا فرنسيين، مما حدا بالهيجونوت المهاجرين من فرنسا إلى الإستقرار في المستعمرات الانجليزية، ومن ناحية ثانية فإن الفرنسيين طبقوا في ملكية الأراضي بكندا النظام الإقطاعي؛ فخصصوا النبلاء بالملكيات الكبيرة، وفرضوا على الفرنسيين في كندا نفس الحقوق التي كانت مفروضة عليهم في

فرنسا، وهذا ما جعلهم يتحولون إلى التجارة بدل العمل الزراعي، وهو ما أدى إلى عدم زيادة السكان في المستعمرات البريطانية في منتصف القرن الثامن عشر؛ حيث أنه بلغ مليوناً ونصف مليون مقابل ثمانية آلاف للفرنسيين، وبالرغم من أن بعض الأقاليم في فرنسا قد قاومت سياسة الإضطهاد بشدة إلا أن فرنسا كادت تصبح كاثوليكية كلية، وهكذا كانت إستبدادية لويس الرابع عشر الدينية.

وفي مجال السياسة الخارجية والحروب اشترك "لويس الرابع عشر" في عدة حروب منها الوراثة في بالأراضي المنخفضة" (١٦٦٧-١٦٦٨)م وحروبه مع هولندا (١٦٧٢-١٦٧٩)م وحرب البلاتين (١٦٨٨-١٦٩٧)م وحرب الوراثة الإسبانية (١٧٠٢-١٧١٣)م، ففي ١٦٦٧م وجد لويس الرابع عشر فرصة للتوسع في الشمال - الأراضي المنخفضة الإسبانية (بلجيكا)- وقد لاحت هذه الفرصة حينما مات ملك إسبانيا فيليب الرابع (١٦٢١-١٦٦٢)م الذي تزوج لويس ابنته بعد أن تنازل عن حقه في وراثة عرش إسبانيا، إلا أنه بعد موت فيليب الرابع ادعي لويس حق زوجته الإسبانية في وراثة الأراضي المنخفضة، وهكذا أرسل قواته إلى تلك البلاد حيث استولت على عدة من المدن الحدودية بدون مقاومة تذكر، وقد أدى هذا التوسع إلى تحالف كل من انجلترا والسويد وهولندا لوقف التوسع الفرنسي- وتم في النهاية توقيع الصلح في ١٦٦٨ الذي نص على احتفاظ فرنسا بالمناطق التي احتلتها على حدود الأراضي المنخفضة ويعرف هذا الصلح بـ"صلح اكس لا شابيل"

وعن الدولة العثمانية وموقف لويس الرابع عشر منها فلقد شرح "ليبنز" وزير فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في عام ١٦٧١م فكرة تعاون ملك فرنسا مع امبراطور روسيا لمحاربة الدولة العثمانية، وكانت له من وراء ذلك أهدافه الصليبية؛ وهي السماح لفرنسا بالحصول على مصر، وزعم أن حروبه هذه بأنها حروب دينية، وضرورة نصرة الصليب على الهلال، إلا أن هذه المحاربة لكي ينشغل لويس الرابع عشر بعيداً عن الحدود الغربية للأقاليم الألمانية.

وفي ربيع ١٦٧٢م شرع لويس الرابع عشر في حروبه مع هولندا، بعد أن نجح في عقد معاهدة سرية مع انجلترا، ووفق في كسب السويد إلى جانبه، وقد نجحت القوات الفرنسية في الاستيلاء على بعض الولايات والمدن الهولندية، وفي نفس الوقت شعرت أوربا بالخطر الكامن في الأطماع الفرنسية، وتخلت انجلترا عن اتفاقها مع فرنسا، وأعلنت الدنمارك وألمانيا وإسبانيا الحرب عليهم، ولذلك لم يبق في جانب فرنسا إلا السويد، وهكذا وجدت فرنسا نفسها في عزلة لا تحد عليها، وهكذا قرر لويس الرابع عشر إنهاء الحرب وعقد معاهدة عام ١٦٧٨م؛ احتفظت هولندا بمقتضاه بكل أراضيها.

ولم يكتف لويس الرابع عشر بهذه الحروب بل دخل في حرب أخرى ضد الإمبراطور؛ وهي الحرب التي تعرف بـ "حرب البلاتين" التي أعلنت في عام ١٦٨٨م، وبعد تسعة أعوام من الحرب عقدت معاهدة عام ١٦٩٨م؛ والتي انهت الحرب، وتنازلت فرنسا بموجبها عن كل البلاد التي استولت عليها منذ عام ١٦٧٨م، وقد كان لويس الرابع

عشر مضطراً لتوقيع هذه المعاهدة خاصة بعد أن لاحت في الأفق مشكلة أخرى وهي مشكلة الوراثة الإسبانية، وبمقتضي هذه المعاهدات التي تعرف بـ "معاهدة نمويجن" خرجت هولندا من الحرب دون أن تفقد شبرا من أرضها، وتنازلت إسبانيا لفرنسا عن "فرانشي كنتيه" وعدة معاقل على الحدود، ونزل الإمبراطور عن فريبرج وأخذ بدلاً منها "فلسيبرج"، وبسطت فرنسا سيادتها الإسمية على "الإلزاس واللورريين".

بعد الحرب أصبح لويس الرابع عشر أقوي ملك في أوربا، وهنا أراد لويس أن تصبح فرنسا متحدة دينيا كما أنها اتحدت سياسياً، ولهذا لم يشأ أن تبقي طائفة في فرنسا تدين بمذهب يخالف مذهب الملك؛ فألغي مرسوم نانت ١٦٨٥م، وبذلك صودرت الديانة البروتستانتية في فرنسا، وفقد الهيجونوت حرية العبادة والمساواة أمام القانون، فهاجر عدد كبير منهم يقدر بخمسين ألف أسرة، معهم ثروتهم وصناعتهم، ولجأ إلى هولندا وانجلترا وروسيا وأمريكا، فكانت خسارة كبيرة تفقدها هذه الطائفة النشيطة.

سخط العالم البروتستانتي على سياسة لويس ضد الهيجونوت، فتكون "حلف أوجزبرج" عام ١٦٨٨م؛ بين الإمبراطور وإسبانيا والسويد وأمراء ألمانيا الشمالية وهولندا، لمقاومة فرنسا وإجبارها على العودة إلى التقييد بمعاهدات وستفاليا ونمويجين، والتخلي عن كل ما استولت عليه من مكاسب إقليمية خلافاً لأحكام هذه المعاهدات، وكانت انجلترا عضواً في هذا الحلف، لأن "وليام أورانج" حاكم هولندا دعي في نفس العام ليكون مع زوجته ماريا ملكاً على انجلترا، وفي سبتمبر أعلن

لويس الحرب على الإمبراطور، فأعلن أعضاء الحلف الحرب على فرنسا، وفي العام التالي أصبحت الحرب عامة، وشعر لويس بثقل أعبائها، وبعد مواصلة الحرب مدة ثمانية أعوام، ضاق الفريقان بالحرب وبدأت مفاوضات الصلح حيث "معاهدة رزويك" أكتوبر ١٦٩٧م على أن:

١-تتخلي فرنسا عن كل البلاد التي استولت عليها منذ "معاهدة نمويجن" ما عدا إستراسبورج، وأن تترك لهولندا تحصين الحصون الواقعة على الحدود الفرنسية لتحفظ حدود بلادها.

٢-أن ينصب "كلمنت" دوق بافاريا على كلونيا، وأن يعترف لويس بحق وليام عرش انجلترا.

وقد كانت معاهدة روزيك ضربة شديدة وجهت لفرنسا وحطمت الكثير من أمالها، وإن كانت هذه المعاهدة وصفت بأنها صلح اللاغالب واللامغلوب؛ نظراً لما أبداه الجميع إزاء المفاوضات من المرونة والواقعية(١٢).

الفصل الثامن

الحياة النيابية في بريطانيا

☒ نظام بريطانيا البرلمانى

كانت بريطانيا هى مهد النظام النيابى، وهذا النظام الذى ينيب فيه الشعب عدداً محدداً من أفراده يُعرفوا بالنواب، ويمارس هؤلاء النواب السيادة بدلاً من الشعب، ويتولون الحكم نيابة عنه ، وتستمد روح النظام النيابى فى بريطانيا من الرضى بحكم الأغلبية وإعطاء الأقلية حريتهم فى المنافسة السياسية وابداء الرأى، حتى يصبح التشريع تشريعاً قوميّاً لا حزبياً، فيكون الحكم برضى الجميع بما يعنى أن الأمة هى مصدر السلطات، وهذا لا يتنافى مع قيام الملكية، ما دامت سلطة الملك التنفيذية والتشريعية محدودة، وتعود الجذور التاريخية للنظام النيابى فى بريطانيا إلى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث صدرت الماجناكارتا فى ١٢١٥م، ولهذا النظام أركان وأسس من أهمها :

١-استقلال البرلمان.

٢-يقوم الشعب بانتخاب أعضاء البرلمان.

٣-تحديد وقت دورى للانتخابات البرلمانية.

٤-أعضاء البرلمان يمثلون الأمة كلها، ولهم حصانتهم البرلمانية

ينقسم النظام النيابى إلى قسمين: هما النظام الرئاسى والنظام البرلمانى، فأما النظام الرئاسى فهو ذلك النظام الذى تكون فيه السلطة التنفيذية فى يد شخص واحد وهو رئيس الوزراء، فهو الرئيس الفعلى للدولة، وهو الذى يختار باقى الوزراء، ومسئولية الوزارة أمام البرلمان

مسئولية فردية لا تضامنية، وهذا فى ظل فصل شبه مطلق بين السلطات، ومن هذه الدول التى تأخذ بهذا النظام الولايات مصر والمتحدة الأمريكية.

أما فيما يتعلق بالنظام البرلمانى فيمكن القول بأن هذا النظام ما هو إلا صورة من صور النظام النيابى، ويُعد النظام البرلمانى هو أرقى ما وصل إليه الإنسان فى حكم البلاد، ففى الوقت الذى فيه الملك يملك ولا يحكم، تكون هناك رقابة متبادلة بين البرلمان والحكومة، وبذلك يجمع هذا النظام بين المسئولية والفاعلية، حيث يكون للحكومة الحق فى أن تحل البرلمان، ومن حق البرلمان أن يسحب الثقة من الحكومة، وعليه كانت بريطانيا هى الأرض الخصبة التى نشأ فيها هذا النظام، وذلك عندما تقررت المسئولية التضامنية للوزارة فى عام ١٧٨٢م، تلك المسئولية التى تعتبر هى الركن الأساسى فى قيام النظام البرلمانى وحجر الزاوية فيه.

لم تكن بريطانيا هى مهد النظام البرلمانى فحسب، بل كانت الموطن الذى ترعرع فيه وتطور واكتسب أركانه وخصائصه، وعنها نُقِل هذا النظام إلى باقى دول العالم، مما جعل نُظم الحكم الشائعة فى العالم ما هى إلا وليدة النظام البرلمانى البريطانى، ولذلك أُطلِق عل بريطانيا اسم البلد الأم للنظام البرلمانى، ومن الملاحظ أن النظام البرلمانى البريطانى لم يظهر بفعل نظرية سياسية، أو نتيجة لبحث تطبيقى ابتدعه أحد الفلاسفة أو المفكرين، لكنه نظام نشأ نتيجة لظروف إجتماعية وسياسية وتطور تاريخى لطبيعة الظروف والأحداث التى مرت

بها بريطانيا، بل نشأ كرد فعل طبيعى ضد ديكتاتورية الملوك، فى ظل إدارة واعية من قِبل الشعب، ذلك الشعب الذى يحتاج إلى نظام ديموقراطى تُحترم فيه حقوقه وحرياته.

لقد بدأ ظهور النظام البرلمانى فى بريطانيا نتيجة التقاء اثنين من التطورات التاريخية فى بريطانيا، أولهما: ذلك الذى أدى إلى زيادة نفوذ وسلطة البرلمان الممثل من الشعب، وثانيهما: هو الذى أدى إلى إضعاف سلطة الملوك تدريجياً، فكان لابد من وجود سلطتين متساويتين هى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، وهذه هى نقطة بداية النظام البرلمانى، وكانت هنالك عوامل ساعدت أولاً على ظهور هذا النظام، ثم على نجاحه فيما بعد، – وهذه العوامل خاصة ببريطانيا وحدها، لذلك لا يجوز مقارنة هذه العوامل فى بريطانيا بمثيلاتها فى باقى دول العالم – ، ومن أهم هذه العوامل ما يلى:

١-موقع بريطانيا الجغرافى: والذى كان له كبير الأثر فى عدم تعرض بريطانيا للغزو منذ عام ١٠٦٦م فى أعقاب الغزو النورماندى، وهو ما أدى إلى ما يلى:

أ-بُعد بريطانيا عن الثورات العنيفة التى مرت بها القارة الأوربية.

ب-تعميق إحساس الشعب البريطانى بقوميته.

ت-حث الشعب البريطانى للبحث عن نظام سياسى يعطيهم حريتهم، وتُحترم فيه حقوقهم.

ث- عدم اشتراك بريطانيا فى نظام المحالفات الأوربية، فيما عُرف بـ "سياسة العزلة المجيدة".

٢-مناخ بريطانيا: والذى يمتاز ببرودته، وهو ما كان له أثره فى :

أ- هدوء أعصاب الشعب البريطانى مما جعلهم يتقبلون الأزمات والكوارث بتفكير هادئ، فيخرجون بأفضل الحلول المنطقية.

ب-نجاح النظم الديموقراطية: حيث يقال أن النظم الديموقراطية قد صادفت لدى الشعوب ذات الأمزجة الباردة نجاحاً أعظم مما صادفته فى الشعوب التى تميل إلى المرح والطرب.

٣- صفات تميز بها الشعب البريطانى:

أ- عشق الشعب للحرية ورغبته الدائمة فى الإستزادة منها.

ب-احترام الشعب للعادات والتقاليد والسوابق الدستورية.

ت-حُسن التفاهم والإخلاص الذى ساد بين أعضاء الأحزاب السياسية البريطانية لزعمائهم، واحترام الكفاءات فيما بينهم.

ث-امكانية الإختلاف فى الرأى: إذ أن الشعب البريطانى كان يسير على مبدأ (يمكننا أن نختلف)، حيث يرى البريطانى فى منافسه - الذى يخالفه الرأى- أن له مطلق الحرية فى أن يُعبر عن رأيه كيفما يشاء، طالما هدفه هو مصلحة البلاد، وهذه هى الديموقراطية.

☒ خصائص النظام البرلمانى:

١-عدم مسئولية الملك أمام البرلمان عن شئون الحكم، على أساس أن الملك لا يخطئ""، وكان هذا المبدأ هو أحد المبادئ العرفية المُسلم بها فى القانون العام، وإليه يرجع

الفضل فى إيجاد الوزارة فى النظام البرلمانى، لأنه طالما أن الملك لايخطئ، فكان لابد من إيجاد هيئة رسمية تتحمل الأخطاء التى ستتواجد فى نظام الحكم، فأصبح الملك لا يعمل منفرداً، إذ انتقلت اختصاصات الملك إلى الهيئة الوزارية، وهو ما دفع البعض أن يقول: (الملك يملك ولا يحكم).

٢-المسئولية السياسية للوزارة أمام البرلمان، فلقد كانت هذه المسئوليه الركن الأساسى فى قيام النظام البرلمانى، بل وحجر الزاوية فيه.

٣-وجود تعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، أى التعاون بين الحكومة و الوزارة، وذلك فى ظل أن تقف جميع السلطات على قدم المساواة، دون أن تتبع أو تسيطر إحداها على الأخرى.

☒ مضابط البرلمان (الهانسارد Hansard):

منذ أن وُجِد البرلمان البريطانى أولاً فى صورة مجلس العقلاء ثم مجلس الحكماء ثم المجلس الكبير كانت المناقشات سرية وكان من العرف ألاّ يُعلن عنها، حتى جاء عام ١٣٧٦ عندما قرر مجلس العموم "أنه من الخير فى البداية أن يقسموا لبعضهم البعض أن يحتفظ المجلس بسرية مايُقال ويُقرّر فيما بينهم"، فكانت المداولات سرية أما القرارات فكانت تعلن للشعب، ومع ذلك لم يكن فى الإمكان منع الشعب البريطانى من الاحتفاظ بمذكرات يومية خاصة بما سمعوه عن هذه

المناقشات، وفى خلال العصور الوسطى وُجدت صحائف لأعمال البرلمان التى ظهرت كسجلات شخصية لكتبة البرلمان، وكانت عبارة عن ملخص الخطب والقرارات التى اُتخذت فى البرلمان، وفى القرن السابع عشر تم الحد من تسجيلات الكتبة، وفى عام ١٦٤١ أجاز البرلمان طويل الأجل نشر تقرير يومى عن الأحداث البرلمانية فى الوقت الذى لم يكن فيه مسموحاً للأعضاء أن يطبعوا خطبهم الخاصة، وعندما اندفع أحد الأعضاء وهو السير إدوارد درنج وقام بطبع مجلداً من الخطب عن المشاكل الدينية، فما كان من المجلس إلا أن قام بطرده ثم الزج به فى السجن. مما لا شك فيه أن الفضل فى التمهيد لكتابة التقارير البرلمانية يعود إلى الشاعر "أندرو مارفيل" (١٦٦٩-١٦٧٨) عضو البرلمان البريطانى، إذ كان يرسل لناخبيه فى المقاطعات تقارير منتظمة عن وقائع البرلمان، كما قام العضو "انشتل جراى" بحفظ مذكرات شخصية عن مناقشات البرلمان فى الفترة من ١٦٦٧ إلى ١٦٩٤.

نظراً لتكرار حالات الكتابة والحفظ للمناقشات البرلمانية أصدر البرلمان البريطانى قرارات عديدة تُحّرم نشر تلك الكتابات والتى كان منها قرار مجلس العموم ١٧٣٨ والذى يقول: "إنه إنحطاطاً لكرامة هذا المجلس وخرقاً شائناً لامتيازاته أن يتجرأ أى عضو على كتابة أية خطابات أو تقارير عن المناقشات البرلمانية ومن يفعل ذلك يُعّرض نفسه لأقصى العقوبات القانونية"، ولذلك عندما أقدم العضو "وليام كوبت" فى عام ١٨٠٣ على نشر المناقشات كملحق لجريدته المسماة

"السجل السياسى" أودع بالسجن عام ١٨٠٩ بتهمة العصيان، وهو ما حدث أيضاً لـ "توماس كرسون هانسارد" والذى تولى طباعة المناقشات البرلمانية منذ عام ١٨٠٧، وبعد خروج كوبت من السجن تعرض لأزمة مالية وباع نصيبه فى نشر المناقشات إلى هانسارد الذى أصبح الناشر الأوحد لهذه الجلسات وظل هكذا حتى عام ١٨٩٠، حيث أصبح الناشر بعدها مكتب حكومى خاص وفى سنة ١٧٧١م أصدر البرلمان قراراً بطبع جلسات محاضره.

تاريخ الحياة النيابية فى بريطانيا حتى عام ١٨٣٢

تكونت بريطانيا من قبائل "السلت"، والذين غَلَبَ عليهم الطابع البدائى، وهو ما أفقدهم موهبة الحكم والإدارة، مما جعلهم لقمة سائغة فى يد الرومان، ومن بعدهم القبائل الجرمانية مثل(السكسون، الانجليز، الجوت،...إلخ)، ولقد استوطنت هذه القبائل بريطانيا واختلطت فيما بينها بالمُصاهرة حتى تغلّب عليهم اسم الانجليز، والذين كونوا مجلساً استشارياً أُطلِقَ عليه اسم "مجلس الحكماء"، ولقد تكون هذا المجلس من النبلاء، ولكن سرعان ما أنضم إليه رجال الدين، حتى عُرِف المجلس بـ "مجلس العقلاء"، ومع نجاح "النورمانديين" بقيادة "وليم الفاتح" (١٠٦٦-١٠٨٧) فى غزو بريطانيا بعد هزيمة الملك "هارولد جودوينسون" فى موقعة "هاستنجز" كان أول ما قام به وليم الفاتح إلغاء العمل بالقوانين الأنجلوسكسونية الصادرة من مجلس العقلاء، ذلك المجلس الذى سُمِّى بالمجلس الكبير بعد دخول الأشراف وأصحاب

الأراضى الزراعية فيه ولذلك أُطلِقَ على فترة حكم وليم الفاتح "بداية صُنع الأمة الانجليزية".

فى عام ١١٠١م جاءت الوثيقة الأولى للحريات البريطانية "Charter of Liberties" ، وكان ذلك فى عهد الملك "هنرى الأول" (١١٠٠-١١٣٥)، وكانت هذه الوثيقة تتكون من ١٤ مادة، وجاءت اللبنة الأولى للمشاركة الشعبية فى السلطة عندما قام "هنرى الثانى" (١١٥٤-١١٨٩) بدعوة المجلس الكبير للانعقاد عدة مرات حيث مناقشة فرض ضرائب عشرية لتمويل الحروب الصليبية، ولكن أهم الانجازات النيابية التى تنسب إلى الملك هنرى الثانى، هى أنه قام بوضع القواعد الأساسية للقانون العام المعتمد على العرف والعادات والتقاليد التى بمقتضاها تم تنظيم العمل داخل جدران المؤسسات الحكومية وساعدت أيضاً على ترسيخ قواعد الحرية داخل نفوس الشعب البريطانى.

جاء بعد ذلك عهد الملك يوحنا الذي أجبره الأشراف فى ١٥ يونيو ١٢١٥م على توقيع وثيقة "العهد الأعظم" "Magna Charta"، وكانت الماجناكارتا تحتوى على ٦٣ مادة تهدِف أغلبها إلى تنظيم العلاقة بين النبلاء والملك والكنيسة، بالإضافة إلى بعض المواد التى تتحدّث عن حقوق وحرّيات الشعب البريطانى، ولقد تميّزت هذه الوثيقة بمميّزات عديدة منها مايلى:

- الماجنا كارتا هى أوّل وثيقة تُقيّد السلطات الملكية فى أوربا وتُخضعها لسلطة القانون، فلا يملك الملك حق الخروج عن

القانون، وإذا حاول ذلك وجب استعمال القوة لإخضاعه، وهذا ما يُفهم ضمناً من قراءة الماجناكارتا، وعليه تحوّلت الملكية البريطانية المطلقة إلى ملكية دستورية.

- إلغاء الأعباء الضريبية القديمة، وتقنين الضرائب الجديدة، بمعنى أنه يجب ألاّ تُفرض ضرائب جديدة إلاّ بموافقة المجلس العام، وتكون إمّا للتخليص من الأسر، أو لزواج الأبناء، كما ينبغى أن يُعقد المجلس العام للبتّ فى فرض الضرائب بعد إرسال خطابات إلى رؤساء الأساقفة والنبلاء.
- القضاء على بعض العيوب الإجتماعية داخل المجتمع البريطانى، فلا يجوز لموظف عمومى أن يستولى على غلال أو سِلع دون مقابل أو ثمن، ولا يجوز لموظف أن يستولى على حصان أوعربة من أى فرد حُرّ دون رغبة صاحبها .
- الإعتراف ببعض الحقوق الأساسيّة والحرّيات العامّة والشخصيّة للمجتمع البريطانى، والتى أصبحت أساساً للحريّات التى يتمتّع بها العالم الغربى فى العصر الحديث، بمعنى أنه إذا أذنب رجل حُرّ فإنه يُعاقب بالغرامة عقوبة تتناسب مع ذنبه وبعد سماع شهادة شهود مُجاورين يُعتدّ بقَسَمِهم، كما أنّه لا يجوز أن يُجبر أى رجل على العمل عن طريق السخرة فى بناء جسر أو ماشابه ولا يجوز القبض على رجل حُرّ أو سجنه أو طرده أو نفيه من البلاد إلاّ بعد محاكمة قانونية، ولا يجوز مماطلة أى فرد من الشعب أو إنكار حقه فى العدالة، وبذلك فإن الماجناكارتا كانت أساساً للقضاء القانونى.

وبذلك يتّضح أنّ الماجناكارتا كانت أول وأشهر وثيقة دستورية فى تاريخ بريطانيا، ومما يُلاحظ على الماجنا كارتا أنها وثيقة إقطاعية، إذ تحدثت كثيرًا عن حقوق النبلاء الاقطاعيين وما لَهُم، فى الوقت الذى لم تتعرض فيه ولو بإشارة عابرة إلى أهل الريف- والذين كانوا يمثلون ثلاثة أرباع المجتمع البريطانى فى ذلك الوقت-، وحقيقة الأمر أنه كان من الطبيعى أن يكون هؤلاء النبلاء هم الأكثر استفادة من الماجنا كارتا حيث أنهم هم الذين رفضوا دفع الضرائب قبل حرب الملك يوحنّا ضد ملك فرنسا وأُخِذت منهم الأموال عِنوة، ثّم شكّلوا وفداً لمفاوضة الملك بعد هزيمته، وهم الذين كتبوا بنود الماجنا كارتا على يدّ "ستيفين لانجتون" و "وليام لامارش"

وإذا كانت الماجناكارتا بدت وكأنها انتصاراً للإقطاع لا للديمقراطية، إلاّ أ نها نصّت على الحقوق الأساسّية، وبذلك فإن أهمية الماجنا كارتا تتأتّى من أن بعض نصوصها مازالت تحتفظ بقيمتها و تسير عليها بريطانيا وغيرها من الدول التى حذت حذوها حتى اليوم، وهو ماجعلها أيقونة مقدسة للحريات، حيث أنها أطلقت شرارة الحرّية فى العالم، ونظراً لهذه الأهمية يقيم البرلمان إحتفالاً سنوياً فى ذكرى الماجناكارتا.

اعتلى عرش بريطانيا بعد الملك يوحنا الملك "هنرى الثالث" (١٢١٦-١٢٧٢)، والذى بدأ حكمه بإعادة إصدار وثيقة العهد الأعظم ولكن تحت اسمه وتوقيعه، وهو ما جعله مقرباً للشعب، ومنذ أن قام بذلك ظل عهده ساكنا حتى جاء عام ١٢٥٨م، عندما تقدم البرلمان

ببعض الطلبات إلى الملك، والتى عرفت فيما بعد باسم "شروط اكسفورد"، وعلى الرغم من أن الملك وقّع على هذه الطلبات مُجبراً، ثم أقسم على احترام هذه الشروط، إلاّ أنه سرعان ما أخلّ بقسمه، مما أشعل حرباً أهلية بين الملك وبين أعضاء البرلمان، هذه الحرب التى انتهت عام ١٢٦٤م بهزيمة الجيش الملكى، وفى عام ١٢٦٥م ظهر البرلمان البريطانى لأول مرة بشكله الكامل والذى ضّم من بين أعضائه نُوّاباً منتخبين بواسطة الشعب البريطانى فى المقاطعات والمدن.

خطت الحياة النيابية خطوة جادة فى عهد الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧)، ففى عام١٢٩٥م قام الملك بدعوة ممثلى الطبقات لحضور جلسات البرلمان المعروف باسم البرلمان النموذجى "Ideal Parliament"، وهذا لكى يقرر سياسة البلاد، فطالب البرلمان من الملك ألا تفرض أية ضرائب إلا بموافقة البرلمان، على أساس أن كل ما يمس الجميع يجب أن يوافق عليه الجميع، ومع ذلك كله ظلت جميع السلطات فى يد العرش ومجلسه الخاص، والذى استمر فى اصدار القوانين.

بالرغم من أن القرن الرابع عشر الميلادى زاد من تدخل الملوك فى سلطات البرلمان التشريعية والمالية، إلا أن الملك "ادوار الثالث" (١٣٢٧-١٣٧٧) وافق فى عام ١٣٣٧م على إعطاء البرلمان الحق فى إصدار القوانين، بالإضافة إلى حق تعيين مستشارى الملك ومراقبتهم وفصلهم، رغبةً من الملك فى الحصول على ثقة البرلمان، وهو ما يعنى قبول البرلمان لطلبات الملك المالية، ولكن ليس معنى ذلك أن

الملك ترك حكم البلاد للبرلمان، فقد كان الملك يصدر ما يريد من قوانين عن طريق مجلسه الخاص، وذلك فى فترة انفضاض البرلمان، وفى عام ١٣٥١م نادى رجال الدين والأشراف بضرورة أن تجتمع كل طائفة حسب مصالحها واتجاهاتها الفكرية، وعليه ظهر مجلسى البرلمان، أو بالأحرى مجلس باجتماعيين، اجتماع العامة المعروف باسم مجلس العموم أو مجلس النواب "House of Commons"، والآخر هو مجلس اللوردات "House of Lords" والذى كان يجتمع فيه الأشراف ورجال الدين.

ومنذ بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، لوحظ أن مجلس العموم بدأ منذ عام ١٤٠٧م يستأثر بكافة المسائل داخل البرلمان لا سيّما المالية، فى الوقت الذى انحصر دور مجلس اللوردات على مجرد الموافقة على ما تم إقراره من قبل مجلس العموم، وفى عام ١٤١٣م أكد البرلمان على أن المُرشحين والمُصوتين –على حدٍ سواء– يجب أن يكونوا مقيمين فعلاً فى الدائرة الإنتخابية فترة الانتخابات، ثم جاء عام ١٤١٤م وذلك العام الذى تأكدت فيه الاختصاصات التشريعية لمجلس العموم وذلك عندما أصدر الملك "هنرى الخامس" (١٤١٣-١٤٢٢) قانونا نص فيه على أنه لا يجوز إصدار أى قانون إلا بموافقة البرلمان ومن هذا التاريخ جرى العُرف بأن يقوم أعضاء البرلمان بتقديم مشاريع قوانين مُعدلة.

اعتلى عرش بريطانيا "أسرة التيودور" "House of Tudor" خلال الفترة من ١٤٨٥ إلى ١٦٠٣، وفى عهد ملوك هذه الأسرة –

باستثناء الملك هنرى الثامن والملكة إليزابيث- أصاب الحركة النيابية فى بريطانيا حالة من الركود، ولقد أرجع المؤرخون ذلك إلى عوامل عديدة من أهمها:

١- "حركة الإصلاح الدينى": وهى حركة دينية مسيحية بدأت بظهور بعض المصلحين مثل("جان هس"،"جان ويكلف" ، "مارتن لوثر") والذين نادوا باصلاح الكنيسة الكاثوليكية، والتى تدهورت بسبب الانشقاق الذى ظهر بين رجال الدين، فى الوقت الذى استشاط فيه القساوسة والأساقفة فى جمع الأموال لأنفسهم تحت مسمى صكوك الغفران، ناهيك عن رغبة الحكام الزمنيين فى التخلص من سيادة الكنيسة، فها هو هنرى الثامن ينشقّ عن الكنيسة الانجليزية وذلك عندما رفض البابا طلاقه من زوجته الأولى واتاحة الفرصة للزواج من أخرى، فما كان من البرلمان إلاّ أن أصدر فى عام ١٥٣٤م بأن الملك هنرى الثامن هو الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية.

٢- حركة الكشوف الجغرافية: وهى رحلات قام بها الأوروبيون من أجل اكتشاف العالم واستغلال موارده، ولقد أسفرت هذه الحركة على تقدم أوربا فى المعارف والعلوم، والمهم هنا أن بريطانيا أنشأت شركة الهند الشرقية الانجليزية والتى سيطرت على العديد من الدول كمستعمرات مثل الهند، واكتشفت العديد من السواحل مثل الساحل الشرقى للقارة الأمريكية.

٣- النجاح الذى حققته السياسة الخارجية لأسرة التيودور، وقد ظَهَر ذلك جلّياً عندما تصدت بريطانيا للغزو البحرى الأسبانى، حيث تم تحطيم الأسطول الأسبانى "الأرمادا" فى ٥ يوليو ١٥٨٨م وما ترتب على ذلك من انتهاء السيادة الأسبانية البحرية.

٤- تأييد الطبقة الوسطى للحكومة بسبب استعانة هذه الحكومة بأبناء تلك الطبقة للعمل كمحامين.

٥- تدخل الحكومة فى الكثير من الأحيان لمساعدة بعض مرشحى البرلمان الموالين لها.

ففى عهد الملك "هنرى الثامن" (١٥٠٩-١٥٤٧) فقد حاول أن يضغط بتوجيه من وزيره توماس كروميل على بابا روما بالتضييق على الكنيسة فى انجلترا، فاستصدر منذ عام ١٥٢٩م، أى منذ بداية حركته الإصلاحية، وبمساعدة "البرلمان الاصلاحى" الذى استمر حتى عام ١٥٣٥ سلسلة من القوانين التى بسطت نفوذه على الكنيسة الانجليزية، وجدير بالذكر أن هذا البرلمان قد اعتبر أول برلمان حديث فى إنجلترا والعالم، وأنه قد ضم أحزاباً، وجرت فيه مناقشات، وأُخذ فيه تصويت ديموقراطى على القرارات، وعليه فقد نمت سلطة البرلمان، وهذا لأن الملك كان يرعى الحياة النيابية رغبةً منه فى الإستناد إلى برلمان قوى.

وقد ظهرت قوة البرلمان فى القانون الصادر عام ١٥٤٣م فيما عُرِف باسم قانون الحصانة البرلمانية والذى نص على أنّه لا يُجرّم أحد

أعضاء البرلمان نتيجة لآراءه، وفى عهده أيضاً ظهرت اللجان البرلمانية وذلك للحفاظ على قوة عرشه، حيث أن الملك كان كثيراً ما يتدخل فى أعمال البرلمان وذلك لأن رئيس مجلس العموم كان واقعاً تحت تأثير العرش، أجتمعت آراء أعضاء البرلمان على ضرورة تفادى تدخل العرش فى أعمال البرلمان، فقرروا ألاّ ينظر رئيس المجلس فى الميزانية بحجة أن بها أرقام وحسابات كثيرة لايمكنهم دراستها ولذلك يجب أن تكون هناك لجنة مكونة من مجموعة متخصصين فى الماليات، وكانت نية هؤلاء الأعضاء أن يكون رئيس اللجنة خبيراً فى الأعمال المالية فلا يكون رئيس المجلس هو رئيس اللجنة، وبعد أن وافق رئيس المجلس على تكوين هذه اللجنة فطِن إلى هذه الحيلة وحاول االعدول عن قراره، لكن الأعضاء عارضوه قائلين: "أن المسألة أصبحت تقليداً برلمانياً"، وبذلك أخذ البرلمان البريطانى باللجان البرلمانية التى أصبحت أساساً هاماً داخل البرلمان ومن أهم اللجان البرلمانية لجنة المجلس بأكمله التى تقوم بتحضير أعمال المجلس لدراستها.

فى أعقاب ذلك استصدر هنرى من البرلمان الكثير من القوانين منها: قانون يختار بموجبه ولى عرشه بعد أن طلب من البرلمان حرمان ابنته مارى من كاترين أرجوان من ولاية العرش، وفيها ستة أوامر دينية، يتحتم على كل انجليزى مراعاتها، ومن بينها منع زواج القسس، ثم أعلن هنرى أنه فيما عدا طاعته للبابا فهو كاثوليكى معارض لبروتستانتية مارتن لوثر، وكان ذلك بعد صدور " قانون المواد

العشرة " عن النقاط التى يجب أن يؤمن بها كل انجليزى، ورداً على البابا بول الثالث الذى كان يثير أوربا على انجلترا، ناعتاً هنرى بالكافر وبالطاغية، وفى عام ١٥٣٦م صدر قانون بحل الأديرة الصغيرة، ثم صدر فى عام ١٥٣٩م قانون آخر بحل بقية الأديرة.

بعد انتهاء حُكم أسرة التيودور، حكم بريطانيا أسرة جديدة، هى أسرة ستيورات "House of Stuart" (١٦٠٣-١٧١٤)، ومع اعتلاء ملوك هذه الأسرة عرش بريطانيا لاح فى الأفق جوّاً من العداء بين الملك والبرلمان، إذ أن "جيمس الأول" (١٦٠٣-١٦٢٥) بدأ حكمه بنشر مقال أشار فيه أن الملك يستمد حقه فى العرش مباشرة من الله، وهو المعروف سياسيا بنظرية الحق الإلهى، فى الوقت الذى يستمد فيه البرلمان امتيازاته من الملك وهو ما جعل العلاقة تسوء ما بين الملك والبرلمان تلك العلاقة التى زادت سوءاً لدرجة أن البرلمان فى عهد الملك جيمس - والتى استمرت ٢٢ عاماً- لم يجتمع سوى ٨ سنوات فقط، وحتى فى خلال هذه السنوات الثمانية ، لم يسلم البرلمان من الملك الذى قام بسجن بعض الأعضاء، بل وقام بتعطيل البرلمان ذاته عدة مرات.

بعد الملك جيمس جاء "شارل الأول" (١٦٢٥-١٦٤٩) ملكاً على بريطانيا، وقد ظل متمسكاً بسياسة سابقه، وفى عهده قام البرلمان بتقديم عريضة عرفت باسم عريضة الحقوق "Petition of Rights" والتى تعتبر أحد أربع وثائق تاريخية نظّمت العلاقة بين الملك والشعب، وترجع نشأة هذه العريضة إلى الحروب التى خاضها الملك شارل الأول

ضدّ كلّ من إسبانيا وفرنسا، حيث كان الملك فى أمسّ الحاجة إلى المال لتغطية نفقات الحرب، فتقدم بطلب إلى البرلمان لفرض ضرائب جديدة، أراد البرلمان استغلال الموقف لصالحه فعلقّ موافقته شريطة أن يوافق الملك على عدم فرض أية ضرائب دون الحصول على موافقة البرلمان أولاً، فما كان من الملك إلا الموافقة على ذلك فى ١٦٢٧م لحاجته الماسة للمال، وهذا ما عُرِف باسم ملتمس الحقوق، ويعتبر هذا الملتمس إقراراً للمادة الثانية عشر من الماجناكارتا ، وأهم ما جاء من نصوصها:

١-منع فرض الضرائب بالقوة، إذ أن الضرائب لا تفرض إلا بموافقة البرلمان.

٢-منع الجنود من السكن فى منازل الأهالى دون إرادة أصحابها.

٣-عدم اعتقال أى مواطن دون معرفة الأسباب.

وافق الملك شارل الأول فى عام ١٦٢٨م على هذه العريضة مجبراً، وهو ما يعنى ازدياد قوة البرلمان، بل لقد استطاع البرلمان أن يحصل بالموافقة الملكية على وثيقة "الاحتجاج الأعظم" "Grand Remittanc" والتى نصّت على مسئوولية الوزارة أمام البرلمان، حيث أن الوزارة التى لا تنل ثقة البرلمان تحل محلها وزارة جديدة ، بالإضافة إلى إعادة تشكيل الكنيسة وفقا للمبادئ البرلمانية، وفى عام ١٦٣٩ دعا الملك شارل البرلمان للتصديق على بعض الإعتمادات للصرف منها على الحرب ضد اسكتلندا، وكان يسعى لإرغامها على اتباع "الكتاب الإنجليزى للشعائر العامة"، واتباع الحكومة لكنيسة الأساقفة

بدلا من اتباع الكنيسة الإسكتلندية الكلفانية القوية، ورفض البرلمان التصديق على الضرائب، فأمر شارل بحل البرلمان، وهكذا أصبح هذا البرلمان معروفاً باسم "البرلمان قصير الأجل".

وفى عام ١٦٤٠م دعا شارل إلى انتخاب برلمان آخر أُطلِق عليه اسم "البرلمان طويل الأجل" أو "المعمر"، وكان من بين زعمائه "جون بيم" الذى كان من المنتقدين الصريحين للملك ومن البيوريتان الأشداء، ولما حدثت المواجهة بين البرلمان وشارل بعد أن ثار الخلاف بينهما، وبعد أن حاول الملك القبض على أعضاء البرلمان، ادعى بيم وانصاره وجود مؤامرة بابوية لفرض الكاثوليكية على انجلترا، فأخطروا أى (بيم وأنصاره) شارل بهذا الرأى فى مظاهرة كبرى عام ١٦٤١م، وما هى إلا شهور قليلة حتى ارتبط اسم شارل فى عقول الناس بالنوايا الشريرة للمؤامرة البابوية المزعومة، وارتبط أيضاً اسم البرلمان بالدفاع عن الحرية والديانة الحقة، وهذا ساعد على اندلاع الحرب الأهلية البريطانية، ورمز فيها الملك إلى المبادئ الدستورية، كما رمز البرلمان إلى المبادئ الدينية، واحتدم الصدام بين المبدأين. نتيجة لذلك شَعَو الملك شارل بمدى ازدياد قوة ذلك البرلمان، فاقتحمت قوّاته مبنى البرلمان فى عام ١٦٤٢م للقبض على خمسة من أعضائه بتهمة الخيانة العظمى للبلاد، وقد ترتب على ذلك صراعاً عنيفاً بين الملك ومؤيديه من ناحية، وقادة البرلمان بقيادة "أوليفر كرومويل" من الناحية الأخرى، ولقد دام هذا الصراع سبع سنوات (١٦٤٢-١٦٤٨) وانتهى

بانتصار كروميل، والذى أعد مشروعاً ليجبر الملك أن يوقع عليه، وعُرف هذا المشروع بإسم رؤوس المقترحات والذى تضمن ما يلى:

١-وجود وزارة مسئولة أمام برلمان منتخب.

٢-كفالة حقوق الشعب وحرياته.

٣-إسناد قيادة الجيش للبرلمان لمدة عشر سنوات، على أن تصبح القيادة بعد ذلك للملك.

وكان على رأس الموضوعات التشريعية المطروحة على مجلس العموم فى صيف ١٦٤٢م مشروع الدعوة لاجتماع رجال الدين وإلغاء التعددية واستبعاد القسس المنحلين، وكانت هذه المشروعات هى التى حاول أعضاء البرلمان التعجيل بعرضها على مجلس اللوردات.

الجدير بالذكر أن الملك هو الذى فتح الطريق للدعوة إلى الحرب الخفية التى تفجرت من منابر لندن ١٦٤٢، وهو الذى أرغم فئة علية القوم على التحالف مع البيوريتان ممن ينتمون إلى مرتبة متدينة من المجتمع، وبذلك فإن الصلة بين البيوريتان والحرب الأهلية كانت إلى حد كبير من صنع شارل الأول، رغم وجود تأييد شعبى حاسم للبرلمانيين للإقدام على خوض معارك البرلمان، وفى هذه الحرب برز القائد كروميل الذى استطاع انهاء الحرب بهزيمة الملك عام ١٦٤٥ وأصبح أغلب انجلترا تحت سيادة البرلمان عام ١٦٤٦ وتم عدم التسامح مع الملك بل وإعدامه.

رفض شارل التوقيع على المشروع لاعتقاده فى الفكرة القائلة بالحق الإلهى فى الحكم، فخسر بذلك معركته السياسية بعد أن خسر

معركته الحربية فتم اقصاءه من الحكم، وعليه أعلن كروميل سقوط الملكية وظهور الجمهورية برئاسته (١٦٤٩-١٦٥٨) تحت اسم "Lord Protector" اللورد الحامى، وكان أول عمل قام به اللورد كروميل هو إلغاء برلمان العهد الملكى البائت، وأعلن عن قيام برلمان جديد والذى عُرِفَ باسم "برلمان بربون""Barebones Parliament"، ثم قام كروميل بإلقاء البيان الدستورى الرئيسى الصادر عام ١٦٤٩م والمعروف بـ "إتفاقية الشعب" "Agreement of the People"، والتى يعتبرها المؤرخون أحد مصادر الدستور البريطانى، ومن أهم بنود "إتفاقية الشعب" مايلى:

١ـ يُمنح حق التصويت لكلّ رجل بلغ سن الواحد والعشرين (فيما عدا الخدم، المتسولون، البلاط الملكى).

٢. لا يسمح لضباط الجيش أوالمحامين أن يكونوا أعضاءاً فى البرلمان.

٣. الجميع سواء أمام القانون.

٤. يجب أن تُعقد المحاكمات أمام ١٢ محلفاً والذين يختارهم الشعب.

٥ـ يجب أن تُعقد المحاكمة باللغة الانجليزية فيما لا يزيد عن ٦ شهور.

٦ـ لا يُحكم على شخص بالإعدام إلاّ فى حالة جرائم القتل.

٧ـ إلغاء عقوبة السجن المبنيّة على الديون.

٨ـ يجب إلغاء ضريبة العشر التى تُدفع للكنيسة.

٩. إلغاء التجنيد الإجبارى.

وفى ظل هذا الجّو الجمهورى، ظهرت جماعات سياسية جديدة على الساحة تنادى بضرورة ايجاد إصلاحات نيابية، كإعادة توزيع المقاعد البرلمانية وايجاد دستور جديد للبلاد، ومن بين هذه الجماعات كانت جماعة "المسوّيين" "The Levellers"، و"جماعة الحفارين" "The Diggers"، ولقد استجاب كروميل لبعض مطالب هذه الجماعات والتى تخدم مصالحه الشخصية، فقام بوضع دستور ١٦٥٣م والذى تكون من ٤١ مادة، وكان أهم ما جاء بهذا الدستور هو وضع السلطة العليا فى يد حامى الجمهورية، وأيضاً السماح لكروميل بتعيين خليفة له، وفى ظل وضع السلطة التشريعية فى يد برلمان مكون من مجلس واحد، لم يقدر لبريطانيا أن تعيش فى ظل دستور مكتوب إلا لمدة ٦سنوات، إذ تُوفى اللورد كروميل فى ٣ سبتمبر ١٦٥٨م.

جاء بعد كروميل إبنه "ريتشارد" (١٦٥٨-١٦٥٩)، والذى لم يكن مثل والده، حيث كانت تنقصه كل قدرات والده السياسية والعسكرية، وهو ما جعله يعتزل الحكم فى أبريل ١٦٥٩ م، فسادت البلاد حالة من الفوضى أجبرت القائد "مونك" وهو أحد قادة الجيش، للزحف على لندن وحلّ برلمان المجلس الواحد وإعلان عودة الملكية وذلك فى ٢٥ مايو ١٦٦٠م وتبع ذلك عودة الملك "شارل الثانى" (١٦٦٠-١٦٨٥) من منفاه ليتولى الأمور فى بريطانيا ولكن بشروط وضعها اللورد مونك، عُوفت هذه الشروط بشروط بريدا "Declaration of Breda" والتى تمثلت فى:

١- إصدار عفو ملكى شامل لكل من عارض الملكية أو أيّد الجمهورية.

٢-تأسيس برلمان حر.

٣-عدم مصادرة الأراضى التى تم بيعها فى ظل الجمهورية.

٤-عدم اضطهاد أى شخص بسبب معتقداته الدينية.

جاء "جيمس الثانى" (١٦٨٥-١٦٨٨) ليخلف شارل الثانى ملكا على البلاد، وبقدومه عاد الحديث مرة أخرى عن مبدأ التفويض الإلهى للملك فى حكم البلاد، أتبعه إصدار الملك لعدة قوانين لمصلحة الأقلية الكاثوليكية، فكان رد أعضاء البرلمان قاسياً على الملك بإعلانهم العصيان والثورة عليه، تلك الثورة التى ازدادت اشتعالاً بانضمام الشعب إليها ضد الملك، وزاد من قوة هذه الثورة ذلك الدعم الذى لقيته من الأمير "وليم الثالث" أمير أورانج والذى جاء بجيش شعاره برلمان حرّ ومذهب بروتستانتى، ولقد وُصِفت هذه الثورة - كما وصف غيرها من ثورات العالم-بالثورة المجيدة البيضاء التى لم يُهدر فيها قطرة دم واحدة، وطالبت بأن تعمل السلطة الملكية فى ظل إرادة برلمانية، وأكدت الثورة المجيدة دعائم الحكم الملكى الدستورى، ونظر إليها الانجليز كثورة تمثل نجاحاً سياسياً دستورياً جعلت الشعب مصدر السلطات ممثلاً فى البرلمان، ولقد نجحت الثورة فى تحقيق بعض مطالبها مثل:-

١- أصبح أعضاء البرلمان لا يأخذون أموالاً من الشعب مقابل الخدمات التي يؤدونها.

٢- انهاء المشكلة الدينية بين البروتستانت والكاثوليك.

٣- أنهت التدخل الملكى فى شئون البرلمان حيث أصبح من حق البرلمان إصدار القوانين وفرض الضرائب وتقرير سياسة الدولة

٤- إزدياد الوعى السياسى لدى الشعب البريطانى.

الجدير بالذكر أنه قد نتج عن هذه الثورة هروب الملك جيمس الثانى إلى فرنسا، وإعلان "وليام الثالث" ملكاً على بريطانيا (١٦٨٩-١٧٠٢)، وقد استغلت الجماعات السياسية هذه الثورة للخروج من عنق الزجاجة، فظهرت جماعة "التوريز" "Tories" وهى أصل حزب المحافظين والمكونة من كبار ملاّك الأراضى، كما ظهرت جماعة "الويجز" "Whigs" وهى أصل حزب الأحرار والمكونة من التجار والطبقة المتوسطة، وبذلك فإن الشعب قد انتصر ببرلمانه على الحكم المطلق.

ما أن اعتلى وليم الثالث عرش بريطانيا، حتى قدّم له البرلمان لائحة تسمى "لائحة الحقوق" "Bill of Rights" الصادرة فى ٢٢ ديسمبر عام ١٦٨٩م عندما وقّع عليها وليام أمير أورانج وزوجته "مارى" "Mary" مضطّرين، إذ كانت موافقتهما على هذه الوثيقة شرط اعتلائهما عرش بريطانيا بعد هروب الملك جيمس الثانى، ولقد جاء فى هذه الوثيقة سرداً لأعمال الملك جيمس الثانى الغير قانونية، بالإضافة إلى تحديد سلطات الملك القادم والتأكيد على حقوق البرلمان والأفراد، ومن أهم بنود هذه الوثيقة مايلى:

١. لايمكن إبطال أى قانون إلاّ بموافقة البرلمان.

٢. يحظر على الملك إلغاء أى من القوانين السارية.

٣.لا تُرفع الضرائب إلا بموافقة البرلمان.

٤لا يُتم استدعاء الجيش فى حالة السلم.

٥.يحظر عقاب مقدمى عرائض الشكاوى للبرلمان.

٦.تحظر القسوة فى العقاب، وكذلك التسامح مع المحكوم عليهم.

٧.حق البروتستانت فى اقتناء السلاح للدفاع عن أنفسهم.

٨.ضرورة عقد انتخابات حرّة.

١٠. ضرورة اجتماع البرلمان بشكل متكرر.

١١. حرية المناقشات البرلمانية.

الجدير بالذكرأن بنود هذا الميثاق كانت فى صالح البرلمان وأعضائه، كما كانت الماجناكارتا من قبل فى صالح النبلاء الإقطاعيين، وعليه يمكن تسمية هذا القانون بإسم حقوق البرلمان، كما اعتبرها البعض دستور بريطانيا الحديث، إذ أن هذه الوثيقة كانت ومازالت جزءاً من القضاء.

عقب هذه اللائحة أصدر البرلمان قانوناً جديداً، والمعروف بقانون التسامح الدينى ١٦٨٩م والذى سمح للبروتستانت بمزوالة طقوسهم الدينية بشرط أن يكون ذلك بعيداً عن الحياة السياسية، ومع مطلع القرن الثامن عشر الميلادى أصدر البرلمان البريطانى فى عام ١٧٠١م قانوناً هاماً وهو "قانون التسوية" "Act of Settlement" والذى يعتبر من مصادر الدستور البريطانى، ومن أهم بنود هذا القانون مايلى:

١-وجوب اعتلاء عرش بريطانيا ملكاًيعتنق مذهب الكنيسة الانجليزية، وقد استهدفت هذه المادة أحفاد أسرة ستيورات من الذكور، وعليه تم استبعاد أبناء جيمس الثانى من فكرة اعتلاء العرش، والذين أطُلِقَ عليهم المطالبين لعرش بريطانيا، فلم يكن فى التشريع ما يمنع الملك من كونه كاثوليكى.

٢-وجوب أداء ملك بريطانيا اليمين عند التتويج .

٣-يجوز للوزراء حضور جلسات مجلس العموم، وهو ما أدّى إلى ظهور الحكومة البرلمانية الحقيقية.

٤-لا يجوز مغادرة الملك للبلاد دون موافقة البرلمان.

٥-اللجان القضائية قابلة للتنقل بأمر البرلمان.

٦-لا يجوزالجمع بين عضوية البرلمان وأى وظيفة حكومية أخرى.

٧-لا يجوز للملك عزل القضاة.

٨-البرلمان هو من يُعيّن ويعزل ويُحدّد مرتبات القضاة.

تأتى أهمية هذا القانون من كونه سبباً فى استقلال القضاة من سلطة العرش، وبالتالى مكّن الناس من التمتع بحرياتهم امتد قانون التسوية ليشمل اسكتلنده بعد اتحادها مع انجلترا، لاسيما فيما يتعلق بالشرط الذى يتعلق باختيار الملك القادم لبريطانيا، لا يتدخل هذا القانون فى شأن الأفراد فيما يخص معتقداتهم الدينية، ومن الملاحظ على هذا القانون أنه لازال معمولاً به، بل و ليس هناك نية فى تعديله،

وفى أعقاب هذا القانون ازداد إهتمام الرأى العام بالحياة النيابية، لذلك أصدر البرلمان قانونا فى عام ١٧١٠م، وكان ذلك فى عهد الملكة "آن" "Anne" (١٧٠٢-١٧١٤)، وقد أكّد القانون على ضرورة أن يكون لعضو مجلس العموم دخلاً سنوياً من أرض يمتلكها بما يعادل ١٥ دولاراً.

فى عهد الملك "جورج الثالث" (١٧٦٠-١٨٢٠) استطاع الملك فى عام ١٧٦٠م أن ينشئ لنفسه حِزباً سياسياً وسمّاه أصحاب الملك، لكن سرعان ما انهار الحزب لعدم مصداقيته لدى الشعب، وفى عام ١٧٧١م قام البرلمان بإصدار قراراً بطبع جلسات محاضرة، وفى عام ١٧٨٢م اكتمل النظام البرلمانى فى بريطانيا، حيث تقرر فى هذا العام المسئولية التضامنية للوزراء، ومما يؤكد قوة البرلمان فى عهد الملك جورج الثالث هو اصدار قانون بعدم زواج أفراد الأسرة المالكة بدون موافقة الملك أو البرلمان. وفى عام ١٧٨٩م قام "وليم بت" الصغيررئيس وزراء بريطانيا بتقديم لائحة إلى مجلس العموم يطالب فيه بإصلاح بعض مساوئ الحياة النيابية، لكن انفجار الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو ١٧٨٩م وما تبعها من دخول بريطانيا فى حروب عديدة، كمّم أفواه المصلحين، وجاء الملك "جورج الرابع" (١٨٢٠-١٨٣٠) فى أعقاب الملك جورج الثالث ليعتلى عرش بريطانيا، وفى عهده أصدر البرلمان فى عام ١٨٢٩م قانوناً بمقتضاه تم إلغاء القوانين القديمة التى كانت تحرم على الكاثوليك تولي أية وظائف فى الدولة وهو ما منح الشعب البريطانى حرية الاعتقاد الدينى، وفى ١٨٣٠م وعلى الرغم من

أن بريطانيا كانت تسمح لنسبة ٢% فقط من سكانها بالتصويت فى الانتخابات البرلمانية، إلاّ أن بريطانيا كانت من أكثرالدول الأوربية ديمقراطية.

☒ الدستور البريطانى:

وبريطانيا أقدم دول العالم عهداً بالدستور الذى كان أساساً لنظام الحكم فيها، ومنذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادى كانت مبادئ الدستور البريطانى موضع إعجاب العالم كله، حتى أصبحت نموذجاً تحتذيه أغلب الدول النيابية الحديثة.

ومن أهم خصائص الدستور البريطانى ما يلى:

١-الدستور البريطانى أقدم دستور فى العالم، إذ يمتاز عن غيره من الدساتير العالمية بالعراقة، حيث أنه كان قائماً منذ صدور الماجناكارتا عام ١٢١٥م.

٢-عدم الفصل التام بين السلطات الثلاث (التشريعية، التنفيذية، القضائية) وهو ما إعتُبِر أحد أسباب قوة الدستور البريطانى، رغم أن "ايمانويل كانت" "Immanuel Kant" الفيلسوف الألمانى كان قد وصف الدستور البريطانى بأنه دستوراً قائماً على الفصل بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية واستقلال القضاء، وبالتالى فإن الحكومة النيابية فقط هى القادرة على مراعاة المبادئ الثلاثة الأساسية، أولا: مبدأ حرية جميع أعضاء المجتمع بوصفهم رجالاً، ثانياً: مبدأ خضوع الجميع لتشريع عام

واحد بوصفهم رعايا، ثالثاً: المساواة بين الجميع بوصفهم مواطنين، وهذا ما وجده كانت فى الدستور البريطانى.

٣-للدستور البريطانى ميزة تطبيق روح القانون، أكثر من غيره من دساتير العالم.

٤-لا يوجد شخص فوق القانون مهما كانت مكانته حتى الملك نفسه، وهذا لأن الملك ماكان لِيُصبح ملكاً إلاّ بفضل القانون.

٥-تحديد وتوزيع الدستور لجميع السلطات حتى سلطات الملك ذاته، وعليه فقد كانت جميع السلطات تمارس من خلال القانون.

٦-يخالف الدستور البريطانى جميع دساتير العالم فى أنه مزيج من عادات وتقاليد سياسية نالت مع الزمن تقدير الشعب واحترامه، وأنه من نصوص تشريعية تقررت فى عهود مختلفة.

٧-لم يتم تكليف هيئة نيابية (لجنة دستورية أو جمعية تأسيسية) مهمة تحرير دستور يكون حدّاً فاصلاً بين عهدين، عهداً ماضياً من الاستبداد، وعهداً قادماً بالحرية، بل جاء الدستور البريطانى نتيجة جهود أجيال متلاحقة على مدار مئات السنين، وهو مايعنى أن بريطانيا لم تنل حريتها مرة واحدة، ولكن نالتها على فترات متتالية.

٨-الدستور البريطاني دستوراً مرناً، حيث أن قوانينه الدستورية تحتاج فى تعديلها إلى الإجراءات العادية المتبعة فى تعديل أى قانون عادى، فلم تكن هناك حاجة ماسّة إلى إحداث تعديلات جوهرية إلاّ فيما يختصّ بقوانين الانتخاب، إذ أن قوانين الانتخاب دائما ما

تحتاج إلى قواعد صارمة لتحديد شروط الناخبين والمنتخبين، ولكن يجب أن يُلاحظ أنه عند تغيير أو تعديل أى قانون من قوانين الدستور البريطانى يجب أن يحصل على موافقة جميع السلطات فى ظل اتفاق شعبى على ذلك، وهو مايعنى أن الدستور البريطانى دستورًا مرناً وقابلاً للتطور فى أى وقت.

٩-الدستور البريطانى هو الدستور العرفى الوحيد فى العالم، وهذا لغلبة الأعراف الدستورية (العادات والتقاليد) على الدستور البريطانى، ولقد اعتادت الهيئات الحاكمة استعمال هذه الأعراف حتى أخذت صفة الإلزام.

١٠- الدستور البريطانى إذن دستوراً غير مكتوباً، إذ أن بريطانيا هى البلد الديمقراطى الوحيد الذى لايمكلك دستوراً مسطوراً، حتى قيل أنه لايوجد دستوراً بريطانياً على الإطلاق، وهذه المقولة ذات وجهان:

- الأول: أن الغالب على الدستور البريطانى أنه مستمد من الأعراف والعادات والتقاليد القومية والقيم البريطانية، حتى عُرِف هذا الدستور بالدستور العرفى.
- الثانى: هناك نصوص مكتوبة لقوانين عديدة، مثل الماجناكارتا ١٢١٥م، قانون الحقوق ١٦٨٩م، قوانين الانتخاب، قوانين الصحة والاقتصاد والمالية وغيرها، والتى تُعّد مصدراً أساسّيا للدستور البريطانى.

من الملاحظ أنه خلال القرون الماضية كانت هنالك محاولات عديدة لتدوين الدستور البريطانى فى وثيقة واحدة، لكن كل هذه

المحاولات باءت بالفشل، وكان ذلك لأسباب عديدة منها، أنه ليس هناك سبب يدفع البريطانيون لتدوين دستورهم، فبريطانيا ليست دولة حديثة الاستقلال حتى تكتب لنفسها دستوراً يؤكد وجودها، بل أن النظام البريطانى لايريد أن يقطع صلته بالماضى، وحتى لو نجح البريطانيون مستقبلاً فى تجميع دستورهم فى وثيقة واحدة، فإن الدستور البريطانى سيظل يحتفظ بوصفه دستوراً غير مُدّوناً، إذ أن التدوين الذى يصف أى دستور هو ذلك التدوين الصادر من السلطة المختصة وقت إصدار القوانين.

خلاصة القول أن الدستور البريطاني بمواده المكتوبة كالجسد الضئيل الذى يطفو على قاعدة كبيرة جداً من العادات و التقاليد، أو هو كالكائن الحى الذى يكبر كلما صدر قانون جديد.

الشعب البريطانى والدستور: عُرِف عن الشعب البريطانى حبه الشديد للعدل والمساواة والحرية، تلك الحرية التى لم ينلها الشعب مرّةً واحدة، بل لقد كافح الشعب مئات السنين فى سبيل حصوله على حرّية مطلقة يحميها دستور قوى، ومن أجل ذلك أيضاً واجه الموت أثناء الثورات البرلمانية لمقاومة الحق الإلهى للملوك فى حكم بريطانيا، بالإضافة إلى ذلك، إن الشعب البريطانى من الشعوب التى تحافظ على تقاليدها، وليس فقط أن يُبقى على نظمه القديمة، بل كان يحاول جاهداً أن يتحايل على هذه النظم كى يجعلها ملائمة لتطورات المجتمع، بالإضافة إلى عدم مَيله إلى التطور الحادّ والمفاجئ فى الحياة الدستورية، وكان يُفضّل أن تسير الحركة الدستورية باعتدال

وهدوء للخروج بأفضل رؤية للقوانين، وهذا ماجعل من الدستور آلة ديمقراطية تتحرك دائماً وبدون توقّف من أجل إخراج قوانين تخدم مصلحة الجميع.

يستمدّ الدستور البريطاني حدوده وقواعده من ثلاثة مصادر: وهى السوابق القضائية، والعُرف الدستورى، والقوانين الأساسية.

☒ البرلمان البريطانى

يتكون البرلمان إما من مجلس تشريعى واحد، وإما من مجلسين تشريعيين، وفى بريطانيا كان البرلمان يتكون من مجلسين إذ كانت بريطانيا أول من أخذ بنظام المجلسين والمعروف بالنظام البرلمانى الثنائى، ذلك النظام الذى كان له من المميزات مادفع العديد من دول العالم للأخذ به مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وإيطاليا ومصر الآن، وهذا النظام ما زال معمولاً به فى بريطانيا، ومن أهم هذه المميزات مايلى:

١-يمنع نظام المجلسين من استبداد السلطة التشريعية نفسها، فإذا استبد أحد المجلسين تشريعيا، أوقفه المجلس الآخر أو حد من سلطته.

٢-يقلل نظام المجلسين من حدوث صدام مابين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، فإذا حدث نزاع ما بين أحد المجلسين (ممثلا للسلطة التشريعية) وبين الحكومة (ممثلا للسلطة التنفيذية) يقوم المجلس الآخر بدور الملطف للنزاع.

٣-اتفاق البرلمان بمجلسيه فى الرأى غالبا يمثل الرأى العام ويعكس وجهة نظر الشعب.

٤- يسمح نظام المجلسين أن يكون للطبقة الأرستقراطية تمثيلاً خاصاً بها فى أحد المجلسين، يعرضون فيه طلباتهم ويحصلون به على حقوقهم وحرياتهم، وهو ما يساعد على عدم تعرضهم ووقوفهم فى وجه حريات وحقوق العامة.

ونظراً لأن العالم قد أخذ عن بريطانيا نظام البرلمان الثنائى، لذلك يفخر الانجليز بتسمية البرلمان البريطانى باسم أم البرلمانات فى العالم "The Mother of Parliaments".

<u>من التقاليد البرلمانية البريطانية:</u>

١-لايجوز للملك دخول البرلمان وحضور جلسات، إذ كان العرش يرسل خطاباً يوضح فيه أنه وجد من غير المناسب . بالنسبه له . أن يحضر الجلسة الإفتتاحية للمجلس الجديد، وعليه تم تكليف لجنة رسمية بالإفتتاح والإشراف على البرلمان، ولكن كانت هنالك حالات معينة يجوز للعرش أن يحضر فيها الجلسات البرلمانية منها ما يلى: القاء خطبة العرش فى إفتتاح الدورة البرلمانية، وإن أصبح ذلك من اختصاصات رئيس الوزراء أن يُلقى مثل هذه الخطب باسم الملك . ناهيك عن حل البرلمان.

٢- وجود جندى من الشرطة فى ركن من أركان مجلس العموم، حيث أنه فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى تم إعادة طلاء البرلمان من الداخل، ونظرا لعدم جفاف الطلاء ،فقام المجلس بوضع ذلك

الجندى لينبه الأعضاء أثناء دخولهم وخروجهم،ومن ذلك أصبح وجود ذلك الجندى تقليد برلمانى.

٣-على الرغم من زيادة أعضاء مجلس العموم من وقت إلى آخر، إلا أن مقاعد مجلس العموم ظلت كما هى من حيث عددها منذ أن أُنشئ المجلس حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من تقديم بعض الأعضاء للعديد من الطلبات لزيادة عدد المقاعد، إلا أن رئيس مجلس العموم رفض ذلك وبشدة، معتبراً بقاء الحال على ما هو عليه من التقاليد البرلمانية.

٤-على الرغم من انتشار المقولة التاريخية (الملك فى البرلمان) "The King in Parliament"،إلاّ أن ذلك قد تغّير، إذ أصبحت الجلسة الإفتتاحية تبدأ بكلمة من رئيس المجلس المُنحلّ يُخبر فيها الأعضاء أن الملك يشعر أنه من غير المناسب أن يحضر الجلسة الافتتاحية للمجلس الجديد، لذلك تم تكليف لجنة رسمية مكونة من خمس لوردات يُعرفوا بإسم المفوّضين بافتتاح وعقد البرلمان، ثم يقوم الحاجب بقراءة خطاب التفويض أّولاً، ثم يُطلب من أعضاء مجلس العموم بناءاً على الأمر الملكى أن يختاروا من بينهم رئيسا لمجلسهم (المتحدث)، ثم يقرأ رئيس المجلس الصلوات وهو جالس ويقسم - طبقا للقانون- أن يحافظ على النظام داخل جنبات المجلس، ثم يتم تسليم شهادة بالست عشر لورداً- وهم لوردات اسكتلندا-، بعد ذلك يقّدم قائد الجيش للبرلمان قائمة بأسماء اللوردات الروحانيين وتُتَرك القائمة بالأمرعلى المنضدة، وأخيراً يقسم

باقي اللوردات، وعقب ذلك ينفضّ المجلس فى الساعة الرابعة والنصف، على أن يجتمع ثانية فى اليوم التالى الساعة الثانية ظهراً.

٥-قراءة الصلوات من الكتاب المقدس داخل البرلمان بمجلسيه، وكانت تستمر لمدة خمس دقائق.

٦-يُمنع على الأعضاء منعًا تامًا قراءة الصحف، أو تحرير أية خطابات، أو المرور أو التردد بين المقاعد أثناء انعقاد جلسات المجلس.

٧-تواجد أقدم ثلاثة من أعضاء المجلس يرتدون الأرواب والشعر المستعار ، وجلوس هؤلاء الأعضاء أسفل منصة الرئيس.ند خروج عضو من أعضاء المجلس عن اللهجة المألوفة وتجاوز فى كلامه مع غيره من الأعضاء، تعلو الأصوات داخل المجلس "لا تضرب تحت الحزام".

٨-يتم دفع مبلغ ٤٠٠ جنيه إسترلينى لعضو البرلمان كبدل سفر من وإلى البرلمان، وقد بدأت مناقشة هذا الاقتراح عام ١٧٨٠م عندما عُيّنت لجنة مُنتَخبة برئاسة "شارل جيمس" "Charles James"، الذى أوصى بضرورة دفع مرتبات أعضاء البرلمان إلاّ أنه قوبل بالرفض.

☒ النظام الحزبى فى بريطانيا

من المعروف عن النظام الحزبى فى بريطانيا أنه نظام ثنائى الأحزاب " Two-Party System"، وهذا النظام الذى يتوافر فيه شروط عديدة من أهمها:

١-جود حزبين كبيرين متعادلين فى القوة تقريباً.

٢-يجب أن يتمكن أحد هذين الحزبين من كسب الأكثرية اللازمة فى الحكم دون مساندة حزب ثالث.

٣-تناوب الحزبين على الحكم.

٤-كل حزب يمثل مجموعات مختلفة من الشعب.

الجدير بالذكر أنه منذ أن ظهرت فكرة الأحزاب بمعناها الحديث فى بريطانيا، وقد وُجِدَ حزبان كبيران، ففى القرن الثامن عشر كانت جماعة الويج وجماعة التورى، وفى القرن التاسع عشر تحول اسم هذين الجماعتين، فأصبحت جماعة التورى تُعرف بالمحافظين، بينما عُرِفت جماعة الويج بالأحرار، وفى بداية القرن العشرين كان الصراع بين المحافظين والأحرار، حتى ظهر حزب العمال والذى كان ظهوره ايذاناً بنهاية حزب الأحرار.

يعتبر الحزبان البريطانيان صديقين وخصمين فى نفس الوقت، فهما صديقين متى تعاونا من أجل مصلحة البلاد، وهذا لا ينفى شدة تنافس كلٌ منهما مع الآخر من أجل الوصول للحكم، وهذ التنافس بين الحزبين أفضى إلى ما سُمَى بالأغلبية البرلمانية، والتى تعنى حصول الحزب على معظم المقاعد فى مجلس العموم ولم تكن العلاقة بين الأحزاب السياسية فى بريطانيا دائماً تسير فى طريق الصراع الحزبى

والعراك السياسى، لكن كانت تشوب هذه العلاقة الكثير من المجاملة، تلك المجاملة التى ظهرت بشكل جلى فى خطبة ألقاها بلفور رئيس الوزراء البريطانى فى عام ١٩٠٢م : " أن الإعتدال فى طبع الانجليزى ، يساعده على أن يكون خصماً سياسياً دون أن يتعرض لخصمة ويصفه بكل نعت مُشرف، فالانجليز فى السياسة كالمحامين فى المحكمة، يعتقد كل منهم بصحة رأيه، ولكنهم لا ينسون أبداً واجب المجاملة فلا يكيل أحدهم الشتائم لمناظره، وإذا خرجوا من دار المحكمة خرجوا أصدقاء".

وكان الحزب يمر من الحُكم إلى المعارضة ومن المعارضة إلى الحكم، لذا وجب إلقاء الضوء على الحزب فى المعارضة، فيمكن القول بأن المعارضة هى مؤسسة رسمية معترف بها كعنصر أساسى فى النظام السياسى البريطانى يحمل فيه زعيم المعارضة لقباً رسمياً هو زعيم معارضة جلالة الملك، ويلعب زعيم المعارضة هذا دوراً أساسياً فى تحديد جدول أعمال مجلس العموم بالتنسيق مع رئيس مجلس العموم وزعيم الأغلبية، ويقوم زعيم المعارضة أيضاً بتشكيل حكومة تُعرف بحكومة الظل "The Shadow Cabinet" والتى كانت تتألف منه ومن زعماء المعارضة البرلمانية المُحتمل إشتراكهم فى الوزارة الجديدة التى يُنتظر أن تُشكل عندما يتولى حزبهم مقاليد الحكم، فأصبحت الأكثرية البرلمانية لا تنظر إلى حزب المعارضة على أنه مُعطل لأعمال الحكومة، بل تنظر إليه على أساس أنه جزء لا يتجزأ من الأمة البريطانية.

إن وجود هذه المعارضة فى الحياة البرلمانية البريطانية يعتبر ضمانة لحسن أداء الحكومة والرقابة على أعمالها، وإيجاد حلول بديلة مدونة ومنع تعسف الحزب الحاكم فيرده إلى الإعتدال ورعاية المصلحة القومية لا مصلحة أعضائه، وهذا المركز السامى الذى وصلت إليه المعارضة يرجعه البعض إلى تقاسم الرأى العام بشكل متساوٍ، تقريباً بين الحزب الحكم وحزب المعارضة، فتتعامل الأغلبية مع المعارضة معاملة الند للند، حيث يتناوب الحزبان على كراسى الحكم بشكل فعلى، فالمعارضة اليوم هى حكومة الغد. هناك ملاحظة هامة مؤداها أن المعارضة الممثلة فى حزب المعارضة يظل أكثر اتحاداً وتماسكاً من الحزب الحاكم، فمهما يكن النزاع داخل الحزب المعارض فإن أعضاؤه يبقون على إتفاق لمقاومة الحزب الحاكم من أجل الحلول مكانه، فإذا انتصر حزب المعارضة فى المعركة الإنتخابية وحل عليه الدور إلى عملية تفكك فى الحزب تضعفه لمصلحة خصمه.

الفصل التاسع

الأزمات التي مهدت للحرب العالمية الأولى

☒ أزمة مراكش ١٩٠٦ – ١٩١١ م

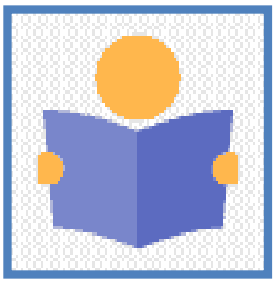

في أعقاب الاتفاق الودي ١٩٠٤م فاوض "دلكاسيه" وزير خارجية فرنسا بشأن تقسيم مراكش دولة أسبانيا التي أقتنعت بالاستيلاء على إقليم الريف فلم يبق أمامها من معارض سوى ألمانيا التى كانت تهتم بمراكش، وتعمل على منع فرنسا من بسط سيطرتها عليها، فقام الإمبراطور "وليم الثانى" بالنزول فى ميناء طنجة فى مارس ١٩٠٥ وألقى خطبة، أكد لسلطان مراكش أن ألمانيا تعتبره سلطاناً مستقلاً آملاً تحافظ مراكش على سياسة الباب المفتوح. فى عام ١٩٠٥ اقترح الكونت "شليفن" رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية على حكومته إقحام حرب على فرنسا لاختبار متانة الاتفاق الودى الإنجليزى الفرنسى بشن هجوم دبلوماسى قوى.

ففى ١٦ يناير ١٩٠٦ عقد مؤتمر فى الجزيرة الخضراء، وحضره ممثلو اثنتى عشرة دولة وسرعان ما تحول هذا المؤتمر إلى صراع سياسى بين ألمانيا وفرنسا، حصلت فرنسا على تأييد صريح من روسيا وبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا، فى حين كان تأييد النمسا لألمانيا فى المؤتمر تأييداً فاتراً، فى المؤتمر انتصرت فرنسا لأنها حصلت على نصيب الأسد فى السيطرة واستبعدت ألمانيا وحلفاؤها كلية من الشرطة، فى حين نالت ألمانيا نجاحاً فى الرقابة المالية وفرض التجارة، فقد

تأسس مصرف الدولة تحت إشراف الدول الأربع ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا، وأسندت قيادة قوة أمن الموانئ إلى ضباط فرنسيين وأسبانيين.

☒ أزمة ضم البوسنة والهرسك ١٩٠٨م

أن بقاء مقدونيا تحت الحكم العثمانى أثبت أنه مركز مزمن للاضطراب والقمع والشدة، وكان التهجم والامتعاض عظيمين فى أوروبا، حينما عرف أن النمسا بدون علم حليفتها ألمانيا، ضمت البوسنة والهرسك فى أكتوبر ١٩٠٨، وأن بلغاريا بتشجيع النمسا أعلنت نفسها مملكة مستقلة عن الباب العالى، وقد رأت النمسا أن الفرصة سانحة لها لضم هذين الإقليمين الذين تحملت عبء إدارتهما منذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ حيث وقعت البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمساوى المجرى. تم التصديق على بيان الإمبراطور النمساوى بموجب معاهدة عقدت فى استانبول – نصت عل ى إلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا.

☒ الحرب التركية الإيطالية ١٩١١ – ١٩١٢ م

أثناء أزمة أغادير حاولت إيطاليا تحقيق بعض التوسعات الجديدة فأخذت تفكر فى إنشاء إمبراطورية إيطالية فى أفريقيا ولم تتمكن من تحقيق أطماعها فى تونس ١٨٨١ ووافقت أطماعها فى أثيوبيا ١٨٩٦ ، ولم توفق إلا فى ١٩١١حين احتلت ليبيا، فقد أعلنت إيطاليا حرباً على الدولة العثمانية بعد أن حصلت على اعتراف الدول

الكرى باحتلال ليبيا، وأنزلت قواتها على الشواطئ الليبية واستولت على جزر الدوديكانيز فى بحر إيجة.

ففى ٢٦ سبتمبر ١٩١١ أرسلت إيطاليا إلى تركيا إنذاراً أن تصدر تركيا أوامرها إلى قواتها بعدم التعرض للقوات الإيطالية ولكى يتم الاحتلال بدون مقاومة، وانتشرت الأخبار بأن الباخرة التركية "درنة" فى طريقها إلى طرابلس محملة بالأسلحة والذخائر، فقدمت إيطاليا إلى الباب العالى مذكرة أشارت فيها إلى الأخطار التى تهدد الرعايا الإيطاليين فى طرابلس ، وحذرت تركيا من أن إرسال السفن والمهمات الحربية إلى فى هذه الظروف سيعتبر عملاً غير ودى، ووصلت "درنة" إلى ميناء طرابلس فى ٢٧ سبتمبر ١٩١١ فقدمت إيطاليا إنذارها إلى تركيا فى اليوم التالى بأن ضرورة ملحة لإنهاء حالة الفوضى والإهمال فى طرابلس وبرقة، وأن يسمح لها بأن تتمتع بالتقدم، وأن إيطاليا تطلب إجابة قاطعة من تركيا خلال أربع وعشرين ساعة من وقت تقديم الوثيقة للباب العالى، وفى حالة عدم الإجابة ستكون إيطاليا مضطرة لأن تتخذ الخطوات اللازمة لتنفيذ الاحتلال – هذا من منطلق القوة الإيطالية فى ذلك الوقت .

ردت تركيا على الإنذار الإيطالى وأظهر الرد للإيطاليين حسن نية تركيا حيال إيطاليا ومشروعاتها الاقتصادية فى طرابلس وبرقة، وأكد لهم أن الحالة فى طرابلس لا تهدد بالخطر، وأن تركيا على أتم استعداد لكى تمنح إيطاليا امتيازات اقتصادية كافية فى هذه الولاية ، على ألا يؤثر ذلك على السيادة العثمانية، وعلى ألا تقدم إيطاليا على احتلالها

عسكرياً، بل تتعاون الحكومتان على تقدم الولاية، وتستفيدا معاً دون أن تتعرض مصالح إحداهما أو كرامتها للاعتداء، وبذلك فإن خطب الود الإيطالى من قبل تركيا دليل الضعف

إذن كانت إيطاليا مصممة على احتلال طرابلس، وأن الدولة العثمانية فى حالة لا تسمح لها برد العدوان الإيطالى والدفاع عن إحدى ولاياتها ، وفى ٢٩ سبتمبر أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا، وقد جاء التوقيت مناسباً حيث انشغال تركيا بمشاكلها الداخلية فى البلقان، ومهدت إيطاليا لتحقيق أهدافها بتوثيق صلاتها بليبيا فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فشجعت رعاياها على الهجرة إليها، وأقامت بها المؤسسات التجارية والشركات الزراعية، والمدارس والمستشفيات والملاجئ، وأنشأت بها فرعاً لبنك روما الذى شرع فيه تقديم القروض للأهالى بالربا الفاحش، وينتزع أملاكهم كلما عجزوا عن سداد ما اقترضوه.

وقد ترك موقف ألمانيا من حرب إيطاليا مع تركيا أثراً سلبياً على وضع إيطاليا فى الثلاثى الألمانى النمساوى الإيطالى، فقد وقفت ألمانيا إلى جانب تركيا حرصاً على صداقتها بها ، الأمر الذى ساعد على خروج إيطاليا من الحلف فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وإعلانها الحرب على ألمانيا.

أما روسيا فقد انتهزت فرصة النزاع وقدمت طلباً رسمياً إلى القسطنطينية فى ديسمبر ١٩١١ بفتح مضيق الدردنيل أمام السفن الحربية الروسية، ولكن إنجلترا وفرنسا رفضتا تأييد المطلب، فرفضت

تركيا طلب روسيا ٠ وبعد أن فشلت إيطاليا فى إرغام تركيا على التنازل لها عن ليبيا قررت ضم ليبيا رسمياً فى فبراير ١٩١٢ ، ومن ناحية أخرى أرغم نشوب حرب البلقان فى أكتوبر ١٩١٢ تركيا على أن تعقد صلح " لوزان مع إيطاليا، وفى هذه المعاهدة تنازلت تركيا عن ليبيا لإيطاليا وقبل أن تنتهى الحرب التركية الإيطالية بدأت حروب البلقان (١٩١٢ – ١٩١٣).

☒ الحروب البلقانية Balkan Wars (١٩١٢ – ١٩١٣)

تمت مقابلة بين ملك إنجلترا وقيصر روسيا فى ريفال فى ظروف الوفاق الودى ١٩٠٧ لتصفية الخلاف بين الدولتين وفهم من هذا الوفاق أنه مساومة استعمارية بينهما على حساب الدولة العثمانية، فكان لابد من تحرك الضباط الأتراك لإيقاف هذه المؤامرة الخارجية، إلا أن الضباط أرسلوا إلى السلطان عبد الحميد يطالبونه بإعادة دستور ١٨٧٦ الذى عطله فى ١٨٧٨، وفى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ أعلن السلطان إعادة الدستور وإلغاء الرقابة والجاسوسية وإجراء انتخابات لمجلس المبعوثان، قوبل إعلان الدستور بابتهاج بالغ فى كافة أنحاء الإمبراطورية، فأعلن أنور باشا أن الحكومة الاستبدادية قد انتهت وأصبح الجميع متساوون سواء بلغار أو يونانيون أو رومانيون أو يهود أو مسلمون نفخر بأننا عثمانيون، وفى مدينة سيريس تعانق رئيس جمعية الاتحاد والترقى فى بلغاريا مع البطرق اليونانى، وفى " دارما " سَجَنَ الضباط الأتراك أحد الأتراك لأنه أهان مسيحياً – وفى

إحدى الكنائس الأرمينية اجتمع عدد كبير من الأتراك والأرمن للصلاة على روح ضحايا المذابح الأرمينية.

☒ حادث سراييفو Sarajevo ٢٨ يوليو ١٩١٤

كانت العلاقة بين النمسا وصربيا تسير من سئ إلى أسوأ والولايات اليوغسلافية المتفرقة حانقة على الحكم النمساوى ، وتوالت المؤامرات اليوغسلافية لقتل كبار الموظفين النمساويين وأخذ "بروشتلد" وزير خارجية النمسا فى يونيو ١٩١٤ يدبر الوسائل السريعة التى تمكن النمسا من القضاء على صربيا ، وكان ولى عهد النمسا "الأرشيدوق فرانز فردناند" من أكثر سياسى النمسا تشدداً إزاء المشكلة الصربية ويرى أنه لا يمكن تسويتها إلا بالقوة، وكان يرمى إلى بسط نفوذ النمسا شرقاً حتى يبلغ سلانيك ، ورأى تمهيداً لذلك جلب البوسنة إليه فزار عاصمتها سراييفو لهذا الغرض ، و فى ٢٨ يونيو ١٩١٤، أطلق عليه أحد طلاب المدارس العالية وعضو جمعية اليد السوداء الصربية ويدعى "غفريلو برنسيب" النار فقتله هو وزوجته دوقة " هوهنرج " فى أحد شوارع سراييفو فأقدمت الحكومة النمساوية ومؤيدتها ومشيرتها الحكومة الألمانية على التذرع بهذا الجرم لتخطو خطوة واسعة فى أوروبا.

وكان الرأى أنه من حسن السياسة أن هذه الجريمة وإن كانت قد ارتكبت فى أرض البوسنة التابعة للنمسا، إلا أنها كانت من تدبير "جمعية اليد السوداء" الصربية ، وأنها لقيت تشجيعاً من جانب موظفى الحكومة الصربية فهناك من القرائن ما يحمل على الاعتقاد بأن اغتيال

اسكندر ملك صربيا وقرينته الملكة دراجا عام ١٩٠٣، ومصرع الأرشيدوق فى عام ١٩١٤ كان كلاهما من عمل " أفيس" رئيس جمعية اليد السوداء، وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩١٤ قدمت الحكومة النمساوية إنذاراً نهائياً إلى الصرب قصد به أن يقابل بالرفض إذ كان ينطوى على تقويض استقلال الصرب وقد تضمن الإنذار عدة مطالب هى :

١-حل الجمعيات الوطنية التى تقوم بالدعاية ضد النمسا وأن تتخذ الحكومة الصربية الإجراءات اللازمة لذلك .

٢- إغلاق الصحف وأن تعطل كل نشرة تحرض على كراهية مملكة النمسا والمجر.

٣-مراقبة المدارس حتى لا ينفث الأساتذة كراهية النمسا فى نفوس الطلاب وحذف كل شئ من المعارف من شأنه أن يكون دعاية موجهة ضد النمسا والمجر وذلك سواء فيما يتعلق بهيئة التدريس أو وسائل التعليم.

٤-مصادرة الكتب المدرسية التى وضعت بقصد الدعاية ضد النمسا والمجر.

٥-عزل القواد والموظفين الذين اشتهر عنهم كراهية النمسا والذين تحتفظ الحكومة النمساوية المجرية بحق تقديم أسماءهم وإبانة أعمالهم للحكومة الصربية.

٦-القبض على شخصين نمساويين جاء ذكرهما فى التحقيق وهما من موظفى الحكومة الصربية.

٧-السماح للنمسا بالاشتراك فى التحقيق الخاص بمقتل ولى العهد، واتخاذ الإجراءات القضائية مع من لهم ضلع – فى الأراضى الصربية – فى مؤامرة الاغتيال هذه.

ومع أن شروط الإنذار هذه كانت شديدة اللهجة ، وفيها كثير من التحدى فإن حكومة الصرب أذعنت لبعض المطالب وترددت فى قبول بعضها الآخر والحقيقة أن هذه الشروط صيغت وفى النية أن ترفض حكومة الصرب وأن يؤول رفضها إلى حر مع صربيا وهذا ما حدث فعلاً، وكان أول خاطر جال فى الأذهان هو أن الحكومتين النمساوية والألمانية تريدان أن تتخذا من هذه الجريمة نكاية لسلب صربيا استقلالها، وربما أيضاً لإقحام حرب عامة على روسيا وفرنسا قبل أن تستكمل السكك الحديدية الروسية، وتصبح معدة للقيام بأعباء الحرب، هذا برغم قبول صربيا سبعاً من العشر التى حواها الإنذار النهائى النمساوى، وذلك أن الجيش الذى تعطش طويلاً إلى تأديب "أمة القتلة والسفاحين "لم يقصد أن تفلت من أنيابه هذه المرة

فى ٢٩ يوليو، ومع أنباء إعلان الحرب الموجهة إلى الصرب وضرب بلجراد بالمدفعية، شعرت روسيا بمسئوليتها عن حماية الصرب فأعلنت التعبئة العامة فى ٣٠ يوليو لحشد الثلاثة عشرة فيلقاً التى سيكون عليها أن تعمل ضد النمسا والمجر فأصبح الصدام الصربى يهدد بأن يتحول إلى صدام نمسوى روسى، وجاء الرد من ألمانيا فى اليوم التالى فى شكل إنذار يطالب بوقف التعبئة، وعندما رفضت روسيا، أعلنت ألمانيا الحرب عليها فى أول أغسطس ١٩١٤، وكانت فرنسا

مرتبطة بتحالف مع روسيا ، فقد تسلمت إنذاراً من ألمانيا يطالبها بالحياد ، ولما لم ترد على الإنذار أعلنت ألمانيا الحرب عليها فى ١٣ أغسطس ١٩١٤ وأخذت فى تنفيذ مشروعها الحربى بغزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبورج.

وهنا رأى "شازونوف" وزير خارجية روسيا ما يملأ قلبه فزعاً من تدابير دولتى أوروبا الوسطى فى الشرق الأدنى، فإن أميرا ألمانيا كان قد أرسل إلى ألبانيا لكى يجلس على عرشها، وقائداً ألمانياً كان قد أوفد إلى القسطنطينية لتنظيم الجيش التركى، فلو أن الصربيين خروا صرعى، فما الذى كان يمنع ألمانيا من إقامة دولة ألمانية تمتد من همبرج إلى بغداد، فمما لا شك فيه أن الصدام النمساوى الصربى لم يكن يتعرض لوجود الإمبراطورية الروسية، ولكنه كان يهدد المصالح الأساسية لسياستها الخارجية الموجهة صوب أفق البلقان، فالنفوذ الروسى على الأهالى المسيحيين فى البلقان كان وسيلة للضغط استخدمتها السياسة الروسية لكى تحصل على تعديل لوضعية التفوق النمساوى المجرى فى البلقان كان سيسهل كذلك تحقيق المخططات الألمانية فى القسطنطينية، ولذلك فإن روسيا لم تكن توافق على أن تقوم النمسا والمجر بسحق الصرب وتصبح القوة المتفوقة فى البلقان، وهنا تأهبت الدول الأوربية الأخرى لخوض غمار الحرب العالمية الأولى ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق المنشورة:

- **مضابط البرلمان البريطاني:(Hansard): وهي موجودة بالمخزن الإفرنجي بجامعة القاهرة.**
- **قانون الماجناكارتا (Magna Charta)**

ثانياً: الرسائل العلمية:

- **عبدالله إسماعيل البستانى:حرية الصحافة دراسة "مقارنة فى فرنسا، انجلترا، العراق"، رسالة ماجستير، جامعة فؤاد الأول، كلية الحقوق، ١٩٥٠.**

- محمد سيد إسماعيل: الحياة النيابية في بريطانيا (١٨٣٢-١٩١٩)م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب، ٢٠١٢.

ثالثاً:المراجع العربية:

- أ.ج . جرانت، هارولد تمبرلي: أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة؛ بهاء فهمي وآخرون، ج١، القاهرة، ١٩٨٢.
- أحمد طاهر: أفريقيا "فصول من الماضي والحاضر"، دار المعارف، ١٩٧٥.
- أشرف صالح محمد سيد(د): أصول التاريخ الأوروبى الحديث، دار تاشرى للنشر، الكويت، ط ١، ٢٠٠٩.
- ألبان .ج . ويدجري:التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي، ترجمة؛ عبد العزيز توفيق جاويد، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٦.
- بول ريفال:"سلسلة اعلام ومشاهير"؛ "هنري الثامن وزوجاته الست"، إشراف؛ رووف سلامة موسي: دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية ومؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت (ب.ت).
- بول كولز: العثمانيون في أوربا، ترجمة ، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

- جلال السيد، سامى مهران: البرلمان المصرى (تقاليد.رقابة.تشريع)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- جلال يحيي (د): عصر النهضة والعالم الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، ١٩٧٩.
- ـــــــــــــــ: فجر التاريخ الحديث ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٦
- ـــــــــــــــ: مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥)، منشأة المعارف بإلاسكندرية، (ب .ت)
- ـــــــــــــــ: معالم التاريخ الحديث، منشأة المعارف بإلاسكندرية، ١٩٧٦
- جورج ليفيبر: عصر الثورة الفرنسية، تعريب؛ د.جلال يحيي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.
- جوندولين كارتر، جون هيرز: نظام الحكم والسياسة فى القرن العشرين، ترجمة؛ ماهر نسيم، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢.
- حافظ عفيفى باشا(د): الإنجليز في بلادهم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥.
- خالد عزب: المسلمون واكتشاف الأمريكتين، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٩٣.

- دافد وطسن دانى: تاريخ أساس الشرائع الإنكليزية "سنة الإرتقاء فى نظام الحكومة الإنكليزية" (مصدر القوانين الأساسية للحكومات الدستورية)، ترجمة؛ نقولا فندى حداد المكتبة الشرقية، القاهرة، ١٩٠٦.
- زينب عصمت راشد (د) المختصر في تاريخ أوربا الحديث "من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر"، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، ١٩٨٤.
- ستيفن أوزمنت، فرانك ترنر: التاريخ من شتي جوانبه، ترجمة؛ د.أحمد حمدي محمود، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (د) : أوربا العصور الوسطي "التاريخ السياسي"، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٥.
- ــ: أوربا العصور الوسطي "النهضات والحضارات، والنظم"، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.
- سليمان محمد الطماوى(د): الديموقراطية والدستور الجديد،القاهرة، ١٩٧١.
- سيدنى د.بابلي: الديموقراطية البرلمانية الإنجليزية، ترجمة؛ فاروق يوسف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- صلاح أحمد هريدي (د): تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ٢٠٠١.

- ـــ: دراسات في التاريخ الأمريكي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠.
- عاطف وصفي (د): كوندرسيه، دار المعارف ، ط٢، ١٩٨٧.
- عبد الحميد البطريق (د): التيارات السياسية المعاصرة (١٨١٥-١٩٦٠)، بيروت، ١٩٧٤.
- ـــ، عبد العزيز نوار(د): التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر ڤيينا، بيروت، (ب.ت).
- عبد الحميد متولى(د):أضواء على النظامين البرلمانى والرئاسى، مطبعة مخيمر، الخرطوم، ١٩٦٧.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (د): التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي ، ط٣ ، ١٩٨٦.
- عبد العزيز سليمان نوار (د): تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، (ب.ت).
- ـــ، عبد المجيد نعنعي (د): التاريخ المعاصر "أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية"، بيروت، ١٩٨٩.
- عبد العزيز محمد الشناوي (د): أوربا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢.

- عبد العظيم رمضان (د): تاريخ أوربا والعالم في مصر الحديث، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠.
- فرانكلين . ل. باومر: الفكر الأوربي الحديث"القرن الثامن عشر"، ترجمة؛ د.أحمد حمدي محمود، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
- القس دي وزا: التاريخ الأسود للكنيسة، ترجمة؛ ياسر حطيبة، الدار المصرية للنشر والتوزيع، قبرص، الدار المصرية للنشر والإعلام، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٤.
- محمد عبد الرحيم مصطفي وآخرون: اصول العالم الحديث، دار القاهرة للطباعة ، ١٩٥٧.
- محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع (دار عالم المعرفة)، القاهرة، ١٩٩١.
- محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف ١٩٨٣.
- مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، بحوث عن "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- ميلاد القرحي (د): تاريخ أوربا الحديث والمعاصر "من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية"، الجامعة المفتوحة، ليبيا ، ١٩٩٥.

- هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة؛ أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، دار المعارف بمصر، ط٩، ١٩٩٣.
- هـ.ج.ولز:معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة؛ عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- يسري الجوهري (د): الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٣، ١٩٧٦.
- يسري الجوهري (د): شمال أفريقيا، منشأة المعارف بإلاسكندرية، ١٩٧٦.